تزكيةُ النُّفُوسْ

لفضيلة الشيخ

د. أحمد فريد

غفر الله له ، ولجميع المسلمين

الدعوة السلفية بالإسكندرية

المكتبة العصرية
والدار العالمية للنشر والتوزيع
بالإسكندرية

حقوق الطبع محفوظة
الطبعة الأولى

1426 هـ - 2005 م

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المؤلف

نسأل الله تعالى حسن الخاتمة

إن الحمد للـه نحمـده ، ونسـتعينه ، ونسـتغفره ، ونعـوذ بـالله مـن شـرور أنفسـنا ومـن سـيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل لـه ومـن يضـلل

فلا هادى له ، وأشـهد أن لا إلـه إلا اللـه وحـده لا شـريك لـه ، وأشـهد أن محمـداً عبـده ورسـوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً .

أما بعدُ :

فمن أكثر من خمسة عشـر عامـاً ، ومـع تباشـير الصحوة الإسلامية وفقنـى اللـه عـز وجـل لجمـع كتاب مختصر فى الرقـائق وأسـميته " **دقـائق الأخبار فى رقائق الأخبار** " .

وطبع هذا الكتاب أكثر من طبعة غير محققـة ثـم استأذننى الأخ شرف حجـازى فـى طبـع الكتـاب بعد أن حققه بعـض الإخـوة الأفاضـل فـأذنت لـه ومضى على ذلك مدة ، ثم نـزل الكتـاب باسـم " **تزكية النفوس** " وبتحقيـق الأخ: " ماجـد أبـو الليـل " وانتشـر الكتـاب بفضـل اللـه عـزَّ وجـل وفوجئت بطبعات بيروتية باسـم دار القلـم ليـس لها خطام ولا زمام ، فلا أدرى هل كان هذا باتفاق مـع المحقـق أو علـى الطريقـة البيروتيـة فـي الطباعة وعلى كل حال ليس ذلك بإذن المؤلف ، ولمـا كـان الكتـاب مـن أول مـا كتبتـه مـع قلـة المراجع وقلة العلم والخبرة اشتمل الكتاب على بعـض الأحـاديث الضـعيفة فـأردت أن أبرىء ساحتى من هذه الأحاديث وأن أتعامل معهـا كمـا

تعاملت مع " **البحر الرائق**" و " **مختصر بغية الإنسان**" وغيرهما من حذف الضعيف وإعادة تحقيق الكتاب وتجهيزه لطبعة اقتصادية ، وتسهيل الحصول عليه لإخواننا من المبتدئين فى طلب العلم .

وزدت فى هذه الطبعة بعض الزيادات واستبدلت بعض الأحاديث الضعيفة بأحاديث صحيحة وربما استبدلت بعض الصحيح الذى ليس فى الصحيحين بما يغنى عنه من أحاديث الصحيحين ولا شك أن مؤلف الكتاب أولى بتحقيقه والناظر فى الجهد المبذول سوف يجد بإذن الله تعالى فائدة جديدة ، وكم من كتاب حققه أكثر من محقق واستفاد الناس من مجهود كل محقق ، وقد حافظت على اسم الكتاب دفعاً للتدليس وحتى لايشتريه أحد وهو يملكه ظناً منه أنه مصنف جديد .

أما عن موضوع الكتاب فهو كتاب مختصر عن **تزكية النفوس** ، ويقصد بتزكية النفوس تطهيرها وتطييبها ، حتى تستجيب لربها وتفلح فى دنياها وآخرتها كما قال تعالى : ﴿ **قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا** ﴾ (الشمس : 9-10) .

وهى دعـوة النـبى ﷺ: (اللهم آت نفسـى تقواهـا وزكها أنت خير مـن زكاهـا أنـت وليهـا ومولاهـا) [1].

فيبـدأ الكتـاب بمعرفـة مـا يقبـل بـه العلـم مـن شــرطى الإخلاص والمتابعــة ثــم فضــل العلــم والعلمــاء، ثــم بيــان أحــوال القلــوب وأقســامها وعلامــات مرضــها وســقمها، وأســباب صــحتها وأسـباب سـقمها فـإن النـاس لا يحتـاجون إلـى الوصية بأجسـادهم لحفـظ حياتهـا ودفـع هلاكهـا، فكلهم يأكل ما يفيده ويترك مـا يتحقـق مضـرته، ولكنهــم يتنــاولون الســموم الضــارة المهلكــة لقلوبهم، ويزهدون فى الأغذية النافعة لها، حــتى صارت الأجسام لها قبورٌ إلا من رحم ربك وقليـل ما هم .

ثم ذكرت باباً فـى محاسـبة النفـس ، وبابـاً فـى الزهد وأضرار حـب الـدنيا ، وللأسـف قسـم هـذا الموضوع فى جميـع الطبعـات السـابقة مـع أنـه موضوع واحد فالتأم شمله بفضل الله عـزّ وجـلّ فى هذه الطبعة .

ثم ذكرت عدة عبادات مـن أحـب العبـادات إلـى اللـه عـزّ وجـلّ لا تصـلح القلـوب إلا بهـا كالصـبر

[1] () رواه مسلم (17/41) الـذكر بزيـادة فـى أولـه وآخـره، وأحمـد (4/371) و (6/209).

والشـكر والرجـاء والخـوف والمحبـة والتوكـل والرضا، وختمت هذه الجولة الطيبة فى الرقائق وما تزكو بـه النفـس بالتوبـة الـتى هـى وظيفـة العمر والسبب الموصل إلى محبة الله عزّ وجـلّ : ﴿ **إِنَّ اللَّـــهَ يُحِـــبُّ التَّـــوَّابِينَ وَيُحِـــبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ** ﴾ (البقرة : من الآية222) .

فنسأل الله أن يوفقنا لتوبة نصوح وأن يتقبل منـا صالح الأعمال وأن يتجـاوز عمـا فيهـا مـن نقـص وزلـل، وأن يجعـل خيـر أعمالنـا خواتيمهـا وخيـر أيامنا يوم نلقاه ، وصلى الله وسلم وبـارك علـى محمــد وعلــى آلــه وصــحبه والحمــد للــه رب العالمين .

المؤلف

الإخلاص والمتابعة

شرطان لقبول العمل:

لا يقبل الله عز وجل عملاً من الأعمال حتى يتوفر فيه شرطان فالأول : هو الإخلاص وهو شرط الباطن ، والثانى : هو متابعة سنة الرسول وهو شرط الظاهر ، ودل على هذا المعنى كتاب الله المنزل وسنة النبى المرسل .

قال الله تعالى : **الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلا** (الملك : من الآية2) .

قال الفضيل بن عياض: هو أخلصه فإن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يقبل ، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يقبل .

وقال تعالى: **فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا ولا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا** (الكهف من الآية : 110) .

فالعمل الصالح هو الموافق للسنة وعدم الشرك هو الإخلاص .

وقال تعالى: ﴿ **وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْـلَمَ وَجْهَهُ لله وَهُوَ مُحْسِنٌ** ﴾ (النساء : من الآية 125) .

فإسلام الوجه هـو الإخلاص، والإحسـان هـو متابعة سنة النبى ﷺ .

أ - الإخلاص:-

الإخلاص: هو تجريد قصد التقرب إلى اللـه عـز وجل عن جميع الشوائب .

وقيل : هو إفراد الله عز وجل بالقصـد فـى الطاعات .

وقيل : هو نسيان رؤية الخلق بدوام النظـر إلى الخالق .

والإخلاص شرط لقبول العمل الصـالح الموافـق لسنة رسول الله ﷺ ، وقد أمرنا الله عـز وجـل بـه فقال تعالى : ﴿ **وَمَا أُمِـرُوا إلاّ لِيَعْبُـدُوا اللَّـهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الـدِّينَ حُنَفَـاء** ﴾ (البينة : مـن الآية 5) .

وعن أبى أمامة قال: جاء رجل إلى رسـول اللـه فقـال : أرأيـت رجـل غـزا يلتمـس الأجـرَ والذكْر ماله ؟ فقال رسول الله : (لا شىء لـه)، بأعادهـا ثلاث مـرات ويقـول رسـول اللـه : (لاشىء له)، ثم قال: (إن الله عز وجل لا يقبـل من العمل إلا ما كان له خالصاً وابتغى به وجهـه) [1] .

وعن أبى سعيد الخدرى عـن النـبى أنـه قـال فى حجة الوداع: (نضر الله امرءاً سـمع مقـالتى فوعاها ، فـرب حامـل لفقـه ليـس بفقيـه ، ثلاث لايغل عليهن قلب امرىء مؤمن: إخلاص العمـل للـه، والمناصـحة لأئمـة المسـلمين ، ولـزوم جماعتهم) [2] .

والمعنى: أن هذه الثلاثة تستصلح بها القلـوب ، فمن تخلق بهـا طهـر قلبـه مـن الخيانـة والـدغل والشر .

ولا يتخلص العبد من الشيطان إلا بالإخلاص لقول الله عز وجل:

---

1 () رواه النسائى(6/25) الجهاد، وحسنه العراقى فى تخريج الإحياء (4/28)، وقال المنذرى فى الـترغيب (1/24): إسـناده جيـد، وحسـنه الألبانى فى الصحيحة رقم (52).

2 () رواه الترمذى (10/126) العلم، وقال: حديث حسن صحيح، وابـن ماجه (1/84) المقدمة، والدارمى (1/76) ،والبغوى فى شـرح السـنة (1/236)، وأحمد (4/80،82) ، وصححه الألبانى .

﴿ **إِلا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ** ﴾ (ص : الآية 83) . وروى أن أحد الصالحين كان يقول لنفسه : " يانفس أخلصى تتخلصى ".

وكل حظ من حظوظ الدنيا تستريح إليه النفس، ويميل إليه القلب، قلّ أم كثر، إذا تطرق إلى العمل ، تكدربه صفوه ، وزال به إخلاصه، والإنسان مرتبط فى حظوظه ، منغمس فى شهواته ، قلما ينفك فعلٌ من أفعاله ، وعبادةٌ من عباداته عن حظوظ وأغراض عاجلة من هذه الأجناس، فلذلك قيل : " من سلم له من عمره لحظةٌ واحدةٌ خالصةٌ لوجه الله نجا " ، وذلك لعزة الإخلاص، وعُسْرِ تنقية القلب عن الشوائب ، فالإخلاص: تنقية القلب من الشوائب كلها ، قليلها وكثيرها، حتى يتجرد فيه قصدُ التقرب فلا يكون فيه باعثُ سواه ، وهذا لا يتصور إلا من محب لله مستغرق الهم بالآخرة،بحيث لم يبق لحب الدنيا من قلبه قرارٌ ، فمثل هذا لو أكل ، أو شرب، أو قضى حاجته ، كان خالص العمل ،صحيح النية، ومن ليس كذلك فبابُ الإخلاص مسدودٌ عليه إلا على الندور .
وكما أن مَنْ غلب عليه حب الله ، وحب الآخرة، فاكتسبت حركاتهُ الاعتيادية صفة همه ، وصارت إخلاصاً ، فالذى يغلب على نفسه الدنيا والعلو

والرياسة ، وبالجملة غيـر اللـه ، اكتسـبت جميـع حركاته تلك الصفة، فلا تسلم له عبادةٌ من صومٍ ، وصلاة وغير ذلك إلا نادراً .

فعلاج الإخلاص كسـرُ حظـوظ النفـس، وقطـعُ الطمع عن الدنيا، والتجرد للآخرة ، بحيـث يغلـب ذلك علـى القلـب، فـإذ ذاك يتيسـر بـه الإخلاص، وكم من أعمل يتعب الإنسان فيها ، ويظـن أنهـا خالصةٌ لوجه الله، ويكون فيهـا مـن المغروريـن، لأنه لم يَرَ وجهَ الآفةِ .

كما حُكى عن بعضهم: أنه كان يصلى دائمـاً فـى الصف الأول، فتأخر يوماً عن الصلاة فصلى فـى الصف الثانى، فـاعترتْه خجلـةٌ مـن النـاس حيـث رأوْه فى الصف الثانى، فَعَلم أن مسـرته وراحـة قلبه من الصلاة فـى الصـف الأول كـانت بسـبب نظر الناس إليه، وهذا دقيقٌ غـامضٌ قَلّمـا تسـلم الأعمال من أمثـاله ، وقـلّ مـن ينتبـه لـه إلا مـن وفقه الله تعالى، والغافلون عنه يَرَوْنَ حسناتهم يوم القيامـة سـيئات ، وهـم المقصـودون بقـوله تعالى : ﴿ **وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَـا لَـمْ يَكُونُـوا يَحْتَسِبُونَ وَبَدَا لَهُـمْ سَـيِّئَاتُ مَـا كَسَـبُوا** ﴾ (الزمر : من الآيتين 47 ،48) .

وبقــوله عــز وجــل: **قُــلْ هَــلْ نُنَبِّئُكُــمْ بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالا الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا** (الكهف : الآية 103 - 104) .

بعض الآثار عن الإخلاص

قال يعقوب: " المخلـص مـن يكتـم حسـناته كما يكتم سيئاته " .

قال السوسي: " الإخلاص فَقْدُ رؤيـة الإخلاص ، فإن مَنْ شاهد فى إخلاصه الإخلاص فَقد احتاج إخلاصـه إلـى إخلاص " . ومـا ذكـر إشـارة إلـى تصفية العمل من العُجْب بالفعل ، فإن الإلتفـات إلى الإخلاص، والنظر إليه عُجْب ، وهو من جملة الآفات ، والخالص ما صفا عن جميع الآفات .

قال أيوب: "تخليص النيات علـى العُمّـال أشـد عليهم من جميع الأعمال" .

وقـال بعضـهم: " إخلاص سـاعة نجـاة الأبـد، ولكنّ الإخلاص عزيزٌ".

وقيل لسهل: أى شـىء أشـد علـى النفـس؟ قال : " الإخلاص ،إذ ليس لها فيه نصيب " .

وقال الفُضَيْل: " ترك العمل من أجل النـاس رياء ، والعملُ من أجل الناس شرك، والإخلاص : أن يعافيك الله منهما " .

فضل النيّة

عن عمر بن الخطاب أنـه قـال: " أفضـل الأعمال أداءُ ما افترض الله تعالى، والـورعُ عمـا حرّم الله، وصدقٌ النية فيما عند الله تعالى " .

وقـال بعـض السـلف: " رب عمـلٍ صـغيرٍ تعظمه النية ، وربّ عمل كبير تصغيره النية " .

وعن يحيى بن أبـي كـثير: " تعلّمـوا النيـة ، فإنها أبلغ من العمل " .

وصحّ عن ابن عمر أنـه سـمع رجلاً عنـد إحرامـه يقول : اللهم إنى أريد الحج والعمرة فقال له : " أتُعْلم الناس ، أوَ ليس الله يعلم ما فى نفسـك": وذلـك لأن النيـة هـى : قصـد القلـب ، ولا يجـب التلفظ بها فى شىء من العبـادات وإنمـا يشـرع فى الحج والعمرة أن يقول : لبيك اللهـم بحجـة أو بعمرة أو بعمـرة وحجـة إن كـان قارنـاً ، وهـو الذى يسمى بالإهلال .

متابعة السنّة

والشرط الثانى لقبـول العمـل أن يكـون العمـل مطابقاً لسنة النبى لحديث عاشـئة رضـى اللـه عنها قالت: قال رسول الله : " من أحدث فـى أمرنـا هـذا مـا ليـس منـه فهـو رد" وفـى روايـة لمسلم: من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهــو رد .[1]

فهذا الحديث أصل عظيـم مـن أصـول الإسـلام ، فكمـا أن حـديث: " الأعمـال بالنيـات " ميـزان للأعمـال فـى باطنهـا فهـو ميـزان للأعمـال فـى ظاهرها فكما أن كـل عمـل لايـراد بـه وجـه الله تعالى فليس لعامله فيه ثواب فكذلك كل عمل لا يكون عليه أمر الله ورسوله فهو ردعلـى عـامله فقــوله: " ليـس عليـه أمرنـا " إشـارة إلـى أن أعمال العاملين كلها ينبغى أن تكون تحت أحكام الشريعة فتكـون أحكـام الشـريعة حاكمـة عليهـا بأمرها ونهيها، فمن كان عمله جارياً تحت أحكام

---

[1] () رواه البخارى (5/301) الصلح ، ومسلم (12/16) الأقضية، والرد هنا بمعنى المردود أى فهو باطل غير مقيد به .

الشـريعة موافقـاً لهـا فهـو مقبـول، ومـن كـان خارجاً عن ذلك فهو مردود.

أوجب الله عزَّ وجلَّ علينـا طاعـة رسـوله قـال تعالى: **وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُـولُ فَخُـذُوهُ وَمَـا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا** (الحشر : من الآية 7)

وقال تعالى: **وَمَا كَـانَ لِمُـؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَـةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُـمُ الْخِيَـرَةُ مِـنْ أَمْرِهِـمْ وَمَـن يَعْـصِ اللَّـهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضلالاً مُّبِينًا** (الأحزاب : الآية 36)

وجعل اللـه عـز وجـل اتبـاع سـنة رسـول اللـه علامة على محبته فقال تعالى: **قُلْ إِن كُنتُـمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَـاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُـمُ اللّـهُ** (آل عمران : من الآية 31)

قال الحسن البصرى: ادعى ناس محبة اللـه عز وجل فابتلاهم بهذه الآية : **قُلْ إِن كُنتُـمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي** ... الآية .

كمـا أوصـى النـبى بالتمسـك بسـنته وسـنة خلفـائه الراشـدين فقـال : " فإنه مـن يعـش

منكـم فسـيرى اختلافـاً كـثيراً فعليكـم بسـنتى وسـنة الخلفـاء الراشـدين المهـديين مـن بعـدى عضّوا عليهـا بالنواجـذ وإيـاكم ومحـدثات الأمـور فإن كل بدعة ضلالة " [1] .

قــال الزهــري: الاعتصــام بالســنة نجــاة لأن السنة كما قال مالـك : مثـل سـفينة نـوح ، مـن ركبها نجا ، ومن تخلف عنها هلك .

وقــال ســفيان: لايقبــل قــول إلا بعمــل، ولا يستقيم قـول وعمـل إلا بنيـة، ولا يسـتقيم قـول وعمل ونية إلا بمتابعة السنة .

وعن ابن شـوذب قـال: إن مـن نعمـة اللـه على الشاب إذا نَسُكَ أن يوفقه الله إلى صـاحب سنة يحمله عليها .

فضل العلم والعلماء

1 () رواه أحمد (4/126، 127) ، وأبو داود (12/359، 360) السنة، والترمذى (10/144) العلم ، وقال : هذا حـديث حسـن صـحيح، وابـن ماجه (43) المقدمـة، والدارمى (1/44، 45) اتباع السـنة ، والبغـوى فى شرح السنة (1/205) وقال: هذا حديث حسن.

والعلم هو ما قام عليه الدليل ويقصد به علم الكتاب والسنة بفهم سلف الأمة رضى الله عنهم .

العلم قال الله قال رسوله قال الصحابة ليس بلتمويه
ما العلم نصبك للخلاف سفاهة بين الرسول وبين قول فقيه

فضائله فى القرآن كثيرة، منها قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ **يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ** ﴾ (المجادلة من الآية : 11) .

وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿ **قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ** ﴾ (الزمر من الآية : 9) .

وأما الأخبار ، فقول رسول الله ﷺ: " من يرد الله به خيراً يفقهه فى الدين[1] ، وقوله ﷺ : " من

---

[1] () رواه البخارى (1/164) العلم، ومسلم (13/67) الإمارة، ورواه الترمذى (10/114) عن ابن عباس وقال : حديث حسن صحيح .
قال ابن الأثير: الفقه : الفهم والدراية والعلم فى الأصل وقد جعله العرف خاصاً بعلم الشريعة .

سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له به طريقاً إلى الجنة " [2] .
وسلوك الطريق لالتماس العلم يدخل فيه سلوك الطريق الحقيقى وهو المشى بالأقدام إلى مجالس العلماء، ويدخل فيه سلوك الطريق المعنوية المؤدية إلى حصول العلم مثلُ حفظهِ ومدارسته .

وقوله : " سهل الله له به طريقاً إلى الجنة " قد يراد بذلك أن الله يسهل له العلم الذى طلبه وسلك طريقه ، وييسره عليه، فإن العلم طريقٌ يوصل إلى الجنة، كما قال بعض السلف : " هل من طالب علم فيعان عليه"، وقد يراد به طريق الجنة يوم القيامة وهو الصراط وما قبله وما بعده .

والعلم أيضاً يدل على الله تعالى من أقرب طريق، فمن سلك طريقه وصل إلى الله تعالى وإلى الجنة من أقرب طريق، والعلم أيضا يهتدى به فى ظلمات الجهل والشبه والشكوك ، ولهذا سمى الله كتابه نوراً ، وعن عبد الله بن عمرو عن النبى أنه قال : " إن الله لا يقبض العلم انتزاعا ينتزعه من صدور الناس ولكن يقبضه

---

[2] () رواه مسلم (17/21 ، 22) الذكر والدعاء، والترمذى (10/115) وأبواب العلم، وقال: هذا حديث حسن، وأبو داود (10/73) العلم ، وابن ماجه (225) المقدمة .

بقبض العلماء، فإذا لـم يبـق عـالم اتخـذ النـاس رؤوساً جُهالاً فسئلوا فـأفتوا بغيـر علـم فضـلوا وأضلوا " [1] .
وسُئل عبادة بنُ الصامت عن هذا الحديث فقــال : " لو شئت لأخبرتك بأول علم يرفع من الناس : الخشوع " .

وإنمــا قــال عبــادة هــذا لأن العلــم قسـمان: أحـدهما مـا كـان ثمرتـه فـى قلـب الإنسـان ، هـو العلـم بـالله تعـالى ، وأسـمائه ، وصـفاته، وأفعـاله المقتضـى لخشـيته ، ومهـابته ،وإجلاله ، ومحبته، ورجائه، والتوكل عليـه، فهـذا هـو العلـم النـافع كمـا قـال ابـن مسـعود : " إن أقواماً يقرؤون القرآن لا يجـاوز تراقيهـم، ولكـن إذا وقـع فـى القلـب فرسَـخ فيـه نفـع"، وقـال الحسـن : " العلـم علمـان: علـم اللسـان فـذاك حجة على ابن آدم ، كما فى الحديث " **القـرآن حجة لك أو عليك**" [2]، وعلم فى القلـب فـذاك العلم النـافع ، فـأول مـا يرفـع مـن العلـم العلـمُ النافع، وهو العلم البـاطن الـذى يخـالط القلـوب

---

[1] () رواه البخارى (1/234) العلم، ومسلم (16/223، 224) العلم .
وقال الحافظ : " لايقبض العلم انتزاعاً : أى محواً من الصدور، وكـان تحديث النبى .

[2] () رواه مسلم (3/99، 100) الطهارة ، وقال النووى : فمعناه ظاهر أى تنتفع به إن تلوته وعملت به وإلا فهو حجة عليك .

ويصلحها، ويبقى علم اللسان فيتهاون الناس بـه ولا يعملون بمقتضاه، لا حملتـه ولا غيرهـم، ثـم يذهب هذا العلم بـذهاب حملتـه وتقـوم السـاعة على شرار الخلق " .

- **ومـن الأدلـة علـى فضـل العلـم وأهله كذلك :**

قوله : " لا حسد إلا فى اثنـتين رجـل آتـاه اللـه مالاً فسلطه على هلكته فى الحق ، ورجـل آتـاه الله الحكمة فهو يقضى بها ويعلمها " [1] .

وقوله : " إنما الدنيا لأربعة نفر: عبد رزقه اللـه مالا وعلماً فهو يتقى فـي مـاله ربـه ويصـل فيـه رحمه ويعلم لله فيه حقاً فهـذا بأحسـن المنـازل عند الله ، ورجل آتاه الله علمـاً ولـم يـؤته مـالاً فهو يقول : لـو أن لـى مـالاً لعملـت بعمـل فلان فهو بنيته وهما فى الأجر سواء ، ورجل آتـاه اللـه مالاً ولم يؤته علماً فهو يخبط فى ماله لا يتقـي فيه ربه ولا يصل فيه رحمه ولا يعلم لله فيه حقاً فهذا بأسوأ المنازل عند الله، ورجل لم يؤته اللـه

---

1 () رواه البخـارى (1/165) العلـم، ومسـلم (6/97، 98) صـلاة المسافرين، وقـال الحـافظ : قـوله : " لا حسـد " : أى لا رخصـة فـى الحسـد إلا فـى خصـلتين : أو لا يحسـن الحسـد إن حسـن، أو أطلـق الحسد مبالغة فى الحث على تحصيل الخصلتين .

مالاً ولا علما فهو يقول : لو أن لى مـالاً لعملـت بعمل فلان فهو بنيته وهما فى الوزر سواء"[2] .

فعـادت السـعادة بحملتهـا علـى العلـم ومـوجبه والشقاوة بجملتها على الجهل وثمرته .

قال الإمام أحمد : الناس محتاجون إلى العلم أكـثر مـن حـاجتهم إلـى الطعـام والشـراب لأن الطعام والشراب يحتاج إليـه فـى اليـوم مـرة أو مرتين والعلم يحتاج إليه بعدد الأنفاس .

وقال سفيان بن عيينة : أرفع النـاس منزلـة مـن كان بين الله وبين عباده وهم الأنبياء والعلماء .

ما الفخـر إلا لأهـل العلم إنهـم وقـدر كل أمرىء مـا كـان يحسنه ففـز بعلمٍ تعش حـياً بـه أبداً	**علـى الهـدى لـمن اسـتهدى أدلاء والجـاهلون لأهـل العلـم أعـداء النـاس مـوتى وأهل العلم أحياء**

3 – أنواع القلوب وأقسامها:

---

[2] () رواه الترمذى (9/199، 200) أبواب الزهد، وقال: حسن صحيح، ورواه أحمد (4/230،231) ، وابن ماجه (4228) الزهـد ، وصـححه الألبانى .

قـــال تعـــالى : ﴿ **إِنَّ السَّـــمْعَ وَالْبَصَـــرَ وَالْفُؤَادَ كُـلُّ أُولـــئِكَ كَـانَ عَنْـهُ مَسْـؤُولاً** ﴾ (الإسراء من الآية : 36) .

ولما كان القلب لهذه الأعضاء كالملك المتصرف فـى الجنـود، الـذى تصـدر كلهـا عـن أمـره ، ويستعملها فيما شاء فكلها تحت عبوديته وقهره، وتكتسـب منـه الاسـتقامة والزيـغ ، وتتبعـه فيمـا يعقده من العزم، أو يحله قال النبى ﷺ : " ألا وإن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسدُ كلـه ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهى القلـب "[1] .

فهو ملكُها ، وهى المنفذة لما يأمرها به ، القابلـة لما يأتيها مـن هـديه، ولا يسـتقيم لهـا شـىء مـن أعمالهـا حـتى تصـدر عـن قصـده نيتـه، وهـو المسـئول عنهـا كلها، لأن كـل راعٍ مسـئول عـن رعيته: كان الاهتمام بتصحيحه، وتسـديده، أولـى

---

[1] () جزء من حديث رواه البخارى (1/126) الإيمان ، ومسلم (11/27، 28) المسـاقاة والمزارعـة وأول الحـديث : " إن الحلال بيّـن وإن الحرام بيّن ".
قال الحافظ ابن رجب رحمه الله : فيه إشارة إلـى أن صـلاح حركـات العبد بجوارحه واجتنـابه للمحرمـات واتقـائه للشـبهات بحسـب صـلاح قلبه فإن كان قلبه سليماً ليس فيه إلا محبة الله وخشية الوقـوع فيمـا يكرهه صلحت حركات الجوارح كلها ونشأ عن ذلك اجتناب المحرمـات كلها واتقاء الشبهات حذراً من الوقوع فى المحرمات، وإن كان القلب فاسداً قد استولى عليه اتباع الهوى وطلـب مـا يحبـه ولـو كرهـه اللـه فسدت حركات الجوارح كلها وانبعـث إلـى كـل المعاصـى والشـبهات بحسـب اتبـاع هـوى القلـب (1/284، 285) جـامع العلـوم والحكـم بتحقيق الأحمدى أبو النور .

ما اعتمد عليه السالكون ، والنظـر فـى أمراضـه وعلاجها أهم ما تنسك به الناسكون .
لما كان القلب يوصـف بالحيـاة وضـدها، انقسـم بحسب ذلك إلى ثلاثة أقسام: **القلب الصحيح أو السـليم ، والقلـب الميـت ، والقلـب المريض** .

1 - القلب الصحيح :

هو القلب السليم الذى لاينجو يوم القيامة إلا مَنْ أتى الله تعـالى بـه، كمـا قـال تعـالى: ﴿ **يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ إِلا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْـبٍ سَلِيمٍ** ﴾ (الشعراء :الآية : 88 -89) .

وقيل في تعريفه: إنه القلب الذي سـلم مـن كل شهوة تخالف أمر الله ونهيه ، ومن كل شبهة تعـارض خـبره ، فسـلم مـن عيوديـة مـا سـواه، وسلم من تحكيم غير رسوله ، فخلصت عبـوديته للـه تعـالى ، إرادة ومحبـة ، وتـوكيلاً ، وإنابـة ، وإخباتاً وخشية ، ورجاء ، وخلص عمله لله ، فـإن أحبَّ أَحَبَّ في الله ، وإن أبغض أبغض في اللـه ، وإن أعطى أعطى للـه ، وإن منـع منـع للـه ، ولا يكفيه هذا حتى يسلم من الإنقياد والتحكيـم لكـل مَنْ عدا رسوله ﷺ فيعقد قلبه معـه عقـداً محكمـاً على الإتمام والإقتـداء بـه وحـده ، دون كـل أحـد

فـى الأقــوال والأعمــال ، فلا يتقــدم بيــن يــديه بعقيدة ولا قول ، ولا عمل ، قال تعالى :

 يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُـوا لا تُقَـدِّمُوا بَيْـنَ يَـدَيِ اللَّـهِ وَرَسُـولِهِ وَاتَّقُـوا اللَّـهَ إِنَّ اللَّـهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (الحجرات : 1) .

2 – القلب الميت :

وهو ضد القلب السـليم ، فهـو لايعـرف ربـه ، ولا يعبده بأمره ، وما يحبه ويرضاه ، بـل هـو واقـف مع شهواته ، ولذاته ، ولـو كـان فيهـا سـخط ربـه وغضـبه ، فهـو لايبـالى إذا فـاز بشـهوته وحظـه رضى ربه أم سخط ، فهـو متعبـد لغيـر اللـه ، إن أحب أحب لهواه ، وإن أبغض أبغض لهـواه ، وأن أعطى أعطى لهواه ، وإن منع منع لهواه ، فهواه آثر عنده ، وأحب إليه من رضى مـولاه، فـالهوى إمامه والشهوة قائده ، والجهلُ سائقه ، والغفلـةُ مركبهُ ، فهو بالفكر في تحصيل أغراضه الدنيوية مغمور ، وبسكرة الهوى وحب العاجلـة مخمـور، ينادى إلى الله وإلى الدار الآخرة من مكـان بعيـد فلا يستجيب للناصح ، ويتبع كـل شـيطان مريـد ، الـدنيا تسـخطه وترضـيه ، والهـوى يصـمه عمـا سوى الباطـل ويعميـه ، فمخالطـة صـاحب هـذا القلب سقم ومعاشرته سمّ ، ومجالسته هلاك.

3- القلب المريض :

قلب له حياة وبه علة تمده هذه مرة وهذه أخرى ، وهو لما غلب عليه منهما ، ففيه من محبة الله تعالى ، والإيمان به والإخلاص له والتوكل عليه، ما هو مادة حياته ، وفيه من محبة الشهوات ، وإيثارها ، والحرص على تحصيلها ، والحسد والكبر ، والعجب ، ما هو مادة هلاكه وعطبه ، فهو ممتحن من داعيين: داع يدعوه إلى الله ورسوله والدار الآخرة ، وداع يدعوه إلى العاجلة ، وهو إنما يجيب أقربهما منه باباً ، وأدناهما إليه جواراً .

فالقلب الأول : حيّ ، مخبت ، لين واع.

والثانى : يابس ، ميت .

والثالث : مريض ، فإما إلى السلامة أدنى، إما إلى العطب أدنى.

* * *

علامات مرض القلب وصحته

- **علامات مرض القلب :**

قـد يمـرض قلـب العبـد ، ويشـتد المـرض ، ولا يعرف به صاحبه ، بل قد يموت وصاحبه لايعـرف بمـوته ، وعلامـة مرضـه أو مـوته ، أن صـاحبه لا تـؤلمه جراحـات المعاصـى ، ولا يـوجعه جهلـه بالحق ، وعقائده الباطلة ، فـإن القلـب إذا كـان حياً تألم بورود القبائح عليه ، وتألم بجهله بـالحق – بحسب حياته – وقد يشـعر بـالمرض ، ويشـتد عليه مرارة الدواء ، فهـو يـؤثر بقـاء الألـم علـى مشقة الدواء .

ومن علامات أمراض القلوب عدولها عن الأغذية النافعة إلى الضارة، وعدولها عـن الـدواء النـافع إلى دائهـا الضـار، فـالقلب الصـحيح يـؤثر النـافع الشافى على الضار المـؤذى ، والقلـب المريـض بضدّ ذلك، وأنفع الأغذية : غـذاء الإيمـان ، وأنفـع الأدوية : دواء القرآن .

o علامات صحة القلب :

أن يرتحل عن الدنيا حتى ينزل بالآخرة، ويحل فيها حتى يبقى كأنه من أهلها، أو أبنائها ، جاء إلى هذه الدار غريباً يأخذ منها حاجته ويعود إلى وطنه، كما قال لعبد الله بن عمر: " كن فى الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل " [1] .

وكلما مرض القلب آثر الدنيا، واستوطنها، حتى يصير من أهلها.

- **ومن علامات صحة القلب**: أنه لايزال يضرب على صاحبه حتى ينيب إلى الله، ويخبت إليه ، ويتعلق به تعلق المحب المضطر إلى محبوبه، فيستغنى بحبه عن حب ما سواه، وبذكره عن ذكر ما سواه ، وبخدمته عن خدمة ما سواه .
- **ومن علامات صحة القلب**: أنه إذا فاته وِرْدهُ أو طاعة من الطاعات، وجَدَ لذلك ألماً أعظم من تألم الحريص بفوات ماله وفقده .
- **ومن علامات صحته**: أنه يشتاق إلى الخدمة كما يشتاق الجائع إلى الطعام والشراب .

---

1 () رواه البخارى (11/233) الرقاق، وأحمد (2/24، 41)، والترمذى (9/203) الزهد، وأبو نعيم فى الحلية (3/ 301) .

- **قال يحيى بن معاذ**: " من سر بخدمة الله سُرت الأشياء كلها بخدمته ، ومن قرت عينه بالله قرت عيون كل أحد بالنظر إليه " .
- **ومن علامات صحته**: أن يكون همه واحداً ، وأن يكون فى الله يعنى فى طاعة الله -.
- **ومن علامات صحته**: أن يكون أشح بوقته أن يذهب ضائعاً كأشد الناس شحاً بماله .
- **ومن علامات صحته**: أن يكون إذا دخل فى الصلاة ذهب عنه همه وغمه بالدنيا ووجد فيها راحته ، ونعيمه وقرةَ عينه ، وسرور قلبه.
- **ومن علامات صحته**: أن لا يفتر عن ذكر ربه ، ولا يسأم من خدمته، ولا يأنس بغيره إلا بمن يدله عليه ويذكره به .
- **ومنها**: أن يكون اهتمامه بتصحيح العمل أعظم منه بالعمل ، فيحرص على الإخلاص فيه ، والنصيحة ، والمتابعة ، والإحسان ، ويشهد مع ذلك منةَ الله عليه فيه ، وتقصيره فى حق الله .

* * *

أسباب مرضُ القلبِ

والفتن الـتى تُعـرض علـى القلـوب هـى أسـباب مرضها، وهى فتن الشهوات والشبهات ،فـالأولى : توجب فساد القصد والإرادة ، والثانيـة: تـوجب فساد العلم والإعتقاد .

عن حذيفة بن اليمـان قـال: قـال رسـول اللـه : " تعرض الفتـن علـى القلـوب كعـرض الحصير ، عوداً عوداً ، بأى قلب أشربه نكتت فيه نكتة سوداء ، وأى قلب أنكرهـا نكتـت فيـه نكتـة بيضاء ، حتى تعود القلب على قلبين : قلب أسود مرباداً كالكوز مجخياً ، لايعرف معروفاً ، لا ينكـر منكـراً إلا مـا أشـرب مـن هـواه ، وقلـب أبيـض لاتضره فتنـة ما دامت السمـاوات والأرض "[1] .

فقسّم القلوب عند عرض الفتـن عليهـا إلـى قسـمين: قلـب إذا عُرضـت عليـه فتنـة أشربها كما يشـرب السـفنج المـاء ،فتنكـت فيـه نكتة سوداء ، فلا يزال يشـرب كـل فتنـة تعـرض عليه حتى يسودّ وينتكس ، وهـو معنـى قـوله : " كالكوز مجخياً " أى مكبوباً منكوساً ، فإذا اسـودّ

---

[1] () رواه مسلم (2/270 ، 272) الإيمان .
وقوله : " مُرباداً" المربد الذى لونه رُبدة وهى بين السواد والغـبرة ، و " المجخى " هو المائل عن الاستقامة والاعتدال .

وانتعكس عرض له من هـاتين الآفـتين مرضـان خطران مترامیان به إلى الهلاك .

أحدهما: اشتباه المعـروف عليـه بـالمنكر، فلا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً وربما اسـتحكم عليه هذا المـرض حـتى يعتقـد المعـروف منكـراً والمنكر معروفاً والسنة بدعـة ، والبدعـة سـنة ، والحق باطلاً والباطل حقاً

الثـانى: تحكيمـه هـواه علـى مـا جـاء بـه الرسول وانقياده للهوى واتباعه له .

وقلب أبيض: قد أشرق فيه نور الإيمـان ، وأزهر فيه مصباحه، فإذا عرضـت الفتنـة أنكرهـا وردها ، فازداد نوره وإشراقه .

4 – سموم القلب الأربعة :

أعلم أن المعاصى كلها سـموم للقلـب وأسـباب لمرضـه وهلاكـه، وهـى منتجـة لمـرض القلـب وإرادته غير إرادة الله عز وجـل ، وسـبب لزيـادة مرضه.

قال ابن المبارك :

رأيت الذنوب تُميت القلوب وقد يورث الذل إدمانُها.

وترك الذنوب حياة القلـوب وخيرُ لنفسك عصيانُهـا.

فمن أراد سلامة قلبه وحياته فعليه بتخليص قلبه من آثار تلك السموم ، ثم بالمحافظة عليه بعـدم

تعاطى سموم جديدة ، وإذا تناول شيئاً من ذلك خطأ سارع إلى محو أثرها بالتوبة والاستغفار ، والحسنات الماحية .
ونقصد بالسموم الأربعة: **فضول الكلام** ، **وفضول النظر** ، **وفضول الطعام** ، **وفضول المخالطة** ، وهي أشهر هذه السموم انتشاراً ، وأشدها تأثيراً فى حياة القلب .

1 – فضول الكلام :

الحمد لله الذى أحسن خلق الإنسان وعدّله ، وألهمه نور الإيمان فزينه به وجملهُ وعلمه البيان فقدمه به وفضله ، وأمده بلسان يترجم به عما حواه القلب وعقله، فاللسان من نعم الله العظيمة ولطائف صنعه الغريبة ، فإنه صغير جرمُهُ عظيم طاعته وجُرمه ، إذ لا يستبين الكفر والإيمان إلا بشهادة اللسان وهما غاية الطاعة والعصيان، ومن أطلق عذبة اللسان وأهمله مرخى العنان سلك به الشيطان فى كل ميدان وساقه إلى شفا جرف هارٍ إلى أن يضطره إلى البوار، ولا يكب الناس فى النار على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم، عن معاذ عن النبى قال: " وهل يكب الناس فى النار على وجوههم – أو

قال : على مناخرهم – إلا حصائد ألسنتهم ؟ " [1] .

والمـــراد بحصـــائد الألســـنة: جـــزاء الكلام المحـرم وعقوبـاته فـإن الإنسـان يـزرع بقـوله وعملـه الحسـنات والسـيئات ، ثـم يحصـد يـوم القيامة ما زرع، فمن زرع خيراً من قولٍ أو عملٍ حصد الرامة، من زرع عشراً مـن قـول أو عمـل حصد الندامة .

وقد وردت الأخبار الكثيرة فى لتحذير مـن آفـات اللسان وبيان خطره.

فمن ذلك قوله تعالى : **مَا يَلْفِـظُ مِـن قَـوْلٍ إِلا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ** (ق :الآية : 18) .

وعن سفيان بن عبد اللـه الثقفـى قـال: قلت يارسول الله ما أخوف ما تخاف علىّ ؟ قال : " هذا وأخذ بلسانه " [2] .

---

1 () رواه الترمذى (10/87، 88) الإيمـان وقـال: حسـن صـحيح وابـن ماجه (3973) الفتن ، والحاكم (2/413) التفسير، وقال صحيح علـى شرط الشيخين ووافقه الذهبى وصححه الألبانى .

2 () رواه الترمذى (9/249) الزهد وقال حسـن صـحيح، وابـن ماجـة (3972) الفتن، والدارمى (2/298) الرقاق ، والحاكم (2/313) وقال صحيح الإسناد ووافقه الذهبى والألبانى .

وعن عقبة بن عامر قـال: قلـت يارسـول الله ما النجاة ؟ قال : " أمسك عليك لسـانك ... " [1].

وقـال : " من كـان يـؤمن بـالله واليـوم الآخـر فليقل خيراً أو ليصمت" [2].

وهو من جوامع كلمه فالكلام إما أن يكون خيراً فيكون العبد مـأمورا بقـوله، وإمـا أن يكـون غيـر ذلك فيكون مأموراً بالصمت عنه .

وعن أبى هريرة أنه سمع رسـول اللـه يقول : " إن العبد ليتكلم بالكلمة ما يتبين فيهـا يزل بها فى النار أبعد ما بين المشرق والمغـرب " [3].

وعن عبد الله بن مسـعود قـال : " واللـه الذى لا إله إلا هو ليـس شـىء أحـوج إلـى طـول سجن من لسانى " .

---

1 () رواه الترمذى (9/247) الزهد، وأحمد (5/259)، وابن المبارك (134) الزهد، وصححه الألبانى لطرقه فى الصحيحة رقم (890).

2 () رواه البخارى (10/445) الأدب ، ومسـلم (2/18) الإيمـان ، وأبـو داود (5032) الأدب ، وابن ماجة (3971) الفتن .

3 () رواه البخـارى (11/266) الرقـاق ، ومسـلم (18/117) الزهـد، والترمذى (9/195) الزهد بلفظ : " إن الرجل ليتكلـم بالكلمـة لايـرى بها بأساً يهوى بها سبعين خريفاً فى النار " وقـال: هـذا حـديث حسـن غريب من هذا الوجه .

وكان يقول: "يا لسان قل خيـراً تغنـم ، واسـكت عن شر تسلم من قبل أن تندم " .
وعن أبى الدرداء قال : " أنصف أذنيك من فيك وإنما جعل لك أذنان وفم واحدٌ لتسمع أكـثر مما تتكلم " .

وعن الحسن البصرى : قال : كانوا يقولـون : إن لسان المـؤمن وراء قلبـه فـإذا أراد ا، يتكلـم بشـىء تـدبره بقلبـه ثـم أمضـاه ، وإن لسـان المنـافق أمـام قلبـه ، فـإذا هـم بشـىء أمضـاه بلسانه ولم يتدبره بقلبه .

- **فإذا قلت : فهذا الفضـل الكـبير للصمت ما سببه ؟**

فاعلم أن سببه كثرة آفـات اللسـان مـن الخطـأ والكـذب والغيبـة والنميمـة والفحـش والمـراء وتزكية النفس والخوض فى الباطـل والخصـومة والفضول والتحريف والزيـادة والنقصـان وإيـذاء الخلق وهتك العورات فهـذه آفـات كـثيرة وهـى سياقة إلى اللسان لا تثقل عليـه ولهـا حلاوة فـى القلب وعليها بواعث من الطبع ومن الشـيطان ، فلذلك عظمت فضيلة الصمت ، مع مـا فيـه مـن جمع الهم، ودوام الوقار والفـراغ للفكـر والـذكر

والعبادة ، والسلامة من تبعات القول فى الدنيا ، ومن حسابه فى الآخرة فقد قال تعـالى : ﴿ **مَـا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيـدٌ** ﴾ (ق :الآية : 18) .

2- فضول النظر:

فضول النظر: هو إطلاقه بالنظر إلى الشـىء بملء العين، والنظر إلى مـا لا يحـل النظـر إليـه وهو على العكس من غض البصر .

والغض: هو النقص وقد أمر اللـه عـز وجـل بـه فقـال : ﴿ **قُـل لِّلْمُـؤْمِنِينَ يَغُضُّـوا مِـنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِـكَ أَزْكَـى لَهُـمْ إِنَّ اللَّـهَ خَبِيـرٌ بِمَـا يَصْـنَعُونَ وَقُـل لِّلْمُؤْمِنَـاتِ يَغْضُضْـنَ مِـنْ أَبْصَـارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ** ﴾ (النـور : الآيـة : 30 – وجزء من 31) .

وعن أبى هريرة ﷺ عن النبى ﷺ: " كتب علـى ابن آدم نصيبه من الزنا فهو مدرك ذلك لا محالة، العينان زناهما النظر ،والأذنان زناهما الاسـتماع، واللسـان زنـاه الكلام، واليـد زناهـا البطـش ،

والرِجْـل زناهـا الخطـى، والقلـب يهـوى ويتمنـى ويصدق ذلك الفرج أو يكذبه " [1] .

وعن جرير قال : سألت رسول الله : ع ن النظر الفجأة فقال: " اصرف بصرك " [2] .

وفضول النظر يـدعو إلـى الاستحسـان ، ووقـوع صور المنظور فى قلب الناظر ، فيحـدث أنواعـاً من الفساد فى قلب العبد منها :

أن النظـرة سـهم مسـموم مـن سـهام إبليـس ، فمن غضّ بصره لله أورثه حلاوة يجدها فى قلبه إلى يوم يلقاه .

ومنها : دخول الشيطان مع النظـرة ، فـإنه ينفـذ معها أسرع من نفوذ الهواء فى المكـان الخـالى، ليزين صـورة المنظـور ، ويجعلهـا صـنماً يعكـف عليه القلبُ ، ثم يعده ويمنيه ، ويوقد على القلب نار الشهوات ويلقى حطـب المعاصـى الـتى لـم يكن يتوصل إليها بدون تلك الصورة .

---

1 () رواه البخارى (10/26) الاستئذان ، وسـملم (16/ـ 205، 206) القدر، وأبـو داود (2139)، النكاح، وأحمد (2/276) .

2 () رواه مسـلم (14/139) الأدب ، والترمـذى (10/229) الادب ، والدارمى(2/228) الاسـتئذان، وأحمـد (4/358، 361)ومعنـى نظـر الفجأة أن يقع بصره علىالاجنبية من= =غيـر قصـد فلا إثـم عليـه فـى أول ذلك ويجب عليه أن يصرف بصـره فـى الحـال ، فـإن صـرف فـى الحال فلا إثم عليه وإن استدام النظر أثـم لهـذا الحـديث فـإن رسـول الله : شرح النووى على صحيح مسلم هامش (14/ 139).

ومنهـا: أنـه يشـغل القلـب ، وينسـيه مصـالحه، ويحول بينه وبينهـا ، فينفـرط عليـه أمـره، ويقـع فى اتباع الهوى والغفلة .

قال الله تعالى : ﴿ **وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَـا قَلْبَـهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْـرُهُ فُرُطًـا** ﴾ (الكهف : من الآية : 28)

- **وإطلاق البصر يوجب هذه الأمور الثلاثة :**

وقال أطباء القلوب: بين العين والقلب منفذ وطريـق ، فـإذا خربـت العيـن وفسـدت خـرب القلـب وفسـد وصـار كالمزبلـة الـتى هـى محـل النجاسـات والقـاذورات والأوسـاخ ، فلا يصـلح لسـكن معرفـة اللـه ومحبتـه، والإنابـة إليـه ، والأنس به ، والسرور بقربـه ، وإنمـا يسـكن فيـه أضداد ذلك .

وإطلاق البصر معصية لله عز وجل لقوله تعالى : ﴿ **قُـل لِّلْمُـؤْمِنِينَ يَغُضُّـوا مِـنْ أَبْصَـارِهِمْ وَيَحْفَظُـوا فُرُوجَهُـمْ ذَلِـكَ أَزْكَـى لَهُـمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ** ﴾ (النور : الآية : 30)

وما سعد من سعد فى الدنيا إلا بامتثال أمر الله ، ولا نجاة للعبد فى الآخرة إلا بامتثال أوامر الله عز وجلَ .
وإطلاق البصر كذلك يُلبس القلب ظلمة، كما أن غضّ البصر لله عزّ وجلَ يُلبسه نوراً .

وقد ذكر الله عزّ وجل آية النور : ﴿ **اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فيهَا مِصبَاحٌ** ﴾ (النور : من الآية : 35) ، بعد قوله عز وجل : ﴿ **قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ .....** ﴾ (النور : من الآية : 30)

وإذا استنار القلب ، أقبلت وفود الخيرات إليه من كل ناحية ، كما أنه إذا أظلم ، أقبلت سحائب البلاء والشر عليه من كل مكان .

وإطلاق البصر كذلك يعمى القلب عن التمييز بين الحق والباطل ، والسنة والبدعة ، وغضهُ لله عزّ وجل يورثه فراسة صادقة يميز بها.

قال أحد الصالحين: " من عمّر ظاهره باتباع السنة ،وباطنه بدوام المراقبة ، وغض بصره عن

المحارم ، وكفّ نفسه عن الشبهات ، واغتذى بالحلال لم تخطىء له فراسة " .
والجزاء من جنس العمل ، فمن غضّ بصره عن محارم الله أطلق الله نور بصيرته .

3 – فضول الطعام :

قلة الطعام توجب رقة القلب، وقوة الفهم، وإنكسار النفس، وضعف الهوى والغضب ، وكثرة الطعام توجد ضد ذلك .

عن المقدام بن مَعْد يكرب قال : سمعتُ رسولَ الله يقول : " ما ملأ ابن آدم وعاءاً شراً من بطنه، بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه، فإن كان لا محالة فثلث لطعامه ، وثلث لشرابه ، وثلث لنفسه " [1] .

وفضول الطعام داع إلى أنواع كثيرة من الشر ، فإنه يحرك الجوارح إلى المعاصى ، ويثقلها عن الطاعات والعبادات، وحسبك بهذين شراً ، فكم من معصية جلبها الشبعُ وفضولُ الطعام ، وكم

---

[1] () رواه الترمذى (9/244) الزهد وقال : هذا حديث حسن صحيح وابن ماجه (3349) الأطعمة، والحاكم (4/121) وصححه ووافقه الذهبى الألبانى .

من طاعةٍ حال دونها، فمن وقي شـرّ بطنـه فقـد وقى شراً عظيماً ، والشيطان أعظم مـا يتحكـم فى الإنسان إذا ملأ بطنه من الطعام ، ولهذا جـاء فى بعض الآثار : إذا امتلأت المعدة نامت الفكرة وخرست الحكمة وقعدت الأعضاء عن العبادة .

وقال بعض السلف: كان شباب يتعبدون مـن بنى إسرائيل، فإذا كان فطرهم قام عليهم قـائم فقال : " لا تأكلوا كثيراً ،فتشربوا كثيراً ، فتناموا كثيراً فتخسروا كثيراً " .

وقد كان النـبى وأصـحابه يجوعـون كـثيراً- وإن كان ذلك لعدم وجود الطعام – إلا ان الله لايختـار لرسوله إلا أكمل الأحـوال وأفضـلها، ولهـذا كـان ابـن عمـر يتشـبه بـه فـى ذلـك مـع قـدرته علـى الطعام ، وكذلك كان أبوه من قبله .

عن عائشة (رضى الله عنها) قالت : " ما شبع آل محمد منذ قدم المدينـة مـن خـبز بُـرٍ ثلاث ليال تباعاً حتى قبض " [1] .

قال إبراهيم بـن أدهـم: " مـن ضـبط بطنـه ضـبط دينـه ، ومـن ملـك جـوعه ملـك الأخلاق

---

[1] () رواه البخارى (11/282) الرقاق ، ومسلم (18/105 ، 106) الزهد .

الصـالحة ، وإن معصـية اللـه بعيـدة مـن الجـائع قريبة من الشبعان " .

4 – فضول المخالطة:

هى الداء العضال الجالب لكل شر ، وكم سَـلبت المخالطة والمعاشرة من نعمة ، وكم زرعت من عداوة ، وكم غرسـت فـى القلـب مـن حـزازات تـزول الجبـال الراسـياتُ وهـى فـى القلـوب لا تـزول ، ففـى فضـول المخالطـة خسـارة الـدنيا والآخــرة ، وإنمــا ينبغــى للعبــد أن يأخــذ مــن المخالطة بقدر الحاجة، ويجعل الناس فيها أربعة أقسام متى خلط أحد الأقسام بـالآخر ولـم يميـز بينها دخل عليه الشر :

احدهما: مَن مخالطته كالغـذاء لا يسـتغنى عنـه فـى اليـوم والليلـة فـإذا أخـذ حـاجته منـه تـرك الخلطة ، ثم إذا احتاج إليـه خـالطه ، هكـذا علـى الدوام، هُم العلماء بالله وأمـره ومكايـد عـدوه ، وأمراض القلوب وأدويتها الناصحون لله ولكتــابه ولرسوله ولخلقه فهذا الضرب فـى مخـالطتهم الربح كلّ الربح .

القمسم الثاني: مَن مخالطته كالدواء ،يحتـاج إليه عند المرض ، فما دُمتَ صحيحاً فلا حاجة لك فى خلطته ،وهم من لايسـتغنى عـن مخـالطتهم فى مصلحة المعـاش ومـا أنـت تحتـاج إليـه مـن أنواع المعاملات والاستشارة ونحوها، فإذا قضت حاجتــك مــن مخالطــة هــذا الضــرب بقيــت مخالطتهم من :

القسم الثالث: وهم مَنْ مخالطته كالداء على اختلاف مراتبه وأنواعه وقـوته وضـعفه ، فمنهـم من مخالطته كالداء العضـال والمـرض المزمـن ،وهو من لاتربح عليه دين ولا دنيا ، ومـع ذلـك فلا بد أن تخسر عليه الدين والدنيا أو أحدهما ، فهـذا إذا تمكنت منك مخـالطته واتصـلت فهـى مـرضُ المــوت المخــوف ، ومنهــم الــذى لايحســن أن يتكلـم فيفيـدك، ولا يحسـن أن ينصـت فيسـتفيد منك ، ولا يعرف نفسه فيضـعفها فـى منزلتهـا ، بل إذا تكلم فكلامه كالعصـى تنـزل علـى قلـوب السـامعين مـع إعجـابه بكلامـه وفرحـه بـه، فهـو يُحـدث مـن فيـه كلمـا تحـدث ويظـن أنـه مسـك يطيـب بـه المجلـس ، وإذا سـكت فأثقـل مـن نصف الرحـا العظيمـة الـتى لا يطـاق حملهـا ولا جرها على الأرض .

وبالجملة فمخالطة كل مخـالف حمـى للـروح فعرضية ولازمة ، ومن نكد الـدنيا علـى العبـد أن يبتلى بواحد من هذا الضـرب وليـس لـه بـد مـن معاشرته ، فليعاشره بالمعروف ويعطيه ظـاهره ويبخل عليه بباطنه حتى يجعل الله له من أمــره فرَجاً ، ومخرجاً .

القسم الرابع: من مخالطته الهلك كله ، فهى بمنزلة أكل السم ، فإذا اتفـق لآكلـه تريـاق وإلا فأحسن الله العزاء ، وما أكثر هـذا الضـرب فـى الناس – لأكثرهم الله – وهم أهل البدع والضـلالة ، الصادون عن سنة رسول الله ، الداعون إلــى خلافها ، فيجعلون السـنة بدعـة والبدعـة سـنة ، وهـذا الضـرب لاينبغـى للعاقـل أن يجالسـهم أو يخالطهم، وإن فعل فإما الموت لقلبه أو المرض .

نسأل الله لنا ولهم العافية والرحمة .

5 - أسباب حياة القلب وأغذيته النافعة:

اعلم أن الطاعات لازمة لحياة قلب العبد لزوم الطعام والشراب لحياة الجسد، وجميع المعاصى بمثابة الأطعمة المسمومة التى تفسد القلب ولابد، والعبد محتاج إلى عبادة ربه عزّ وجلّ فقير إليه فقراً ذاتياً ، وكما يأخذ العبد بالأسباب لحياة جسده من المداومة على تناول الأغذية النافعة فى أوقات متقاربة ، وإذا تبين له أنه تناول طعاماً مسموماً عن طريق الخطأ أسرع فى تخليص جسده من الأخلاط الرديئة ، فحياة قلب العبد أوْلى بالاهتمام من جسده ، فإن كانت حياة الجسد تؤهله لمعيشة غير منغضة بالمرض فى الدنيا، فحياة القلب تؤهله لحياة طيبة فى الدنيا وسعادة غير محدودة فى الآخرة، وكذلك موت الجسد يقطعه عن الدنيا ، وموت القلب تبقى آلامه أبد الآباد .

وقال أحد الصالحين: " يا عجباً من الناس يبكون على من مات جسدهُ ولا يبكون على من مات قلبه وهو أشد " ، فإذن الطاعات كلها لازمة لحياة القلب وتخص هذه بالذكر – لضرورتها لقلب العبد وشدة الحاجة إليها – ذكر الله عز وجل ، وتلاوة القرآن ، والإستغفار ، والدعاء ، والصلاة على النبى ، وقيام الليل .

1- ذكر الله وتلاوة القرآن:

وضرورة الذكر للقلب كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية- قدس الله روحه - : " الذكر للقلب كالماء للسمك، فكيف يكون حال السمك إذا أخرج من الماء" ، وقد ذكر الإمام شمس الدين ابن القيّم ما يقرب من ثمانين فائدة فى كتابه : " الوابل الصيب " ، فننقل بعضها بإذن الله تعالى، وننصح بالعودة إلى الكتاب المذكور لعظيم نفعه، ومن هذه الفوائد :

أن الذكر قوت القلب والروح، فإذا فقه العبد صار بمنزلة الجسم إذا حيل بينه وبين قوته ، ومنها أنه يطرد الشيطان ، ويقمعه ، ويكسره، ويرضى الرحمن عزّ وجلّ ويزيل الهمّ والغمّ عن القلب، ويجلب له الفرح والسرور والبسط ، وينور القلب والوجه، ويكسو الذاكر المهابة

والحلاوة والنضرة، ويورثه محبة الله عـزّ وجـل ، وتقواه ، والإنابة إليه، وكـذلك يـورث العبـدّ ذكـر الله عزّ وجل ، كما قـال تعـالى : ﴿ **فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ** ﴾ (البقرة :من الآية 152) .

ولو لم يكن في الذكر إلا هـذه وحـدها لكفـى بهـا فضلاً وشـرفاً ويـورث جلاء القلـب مـن الغفلـة، ويحط الخطايا .

ورغم أنه من أيسـر العبـادات، العطـاء والفضـل الذى رتب عليه لم يرتب على غيره من الأعمال.

عن أبى هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قـال: " من قـال لا إلـه إلا اللـه وحـده لا شـريك لـه ، لـه الملك وله الحمد، وهو على كل شىء قديرٌ ، فى اليوم مائة مـرة كـانت لـه عـدل عشـرة رقـاب ، وكتبت له مائة حسنة ، ومحيت عنه مائـة سـيئة ، وكانت له حرزا مـن الشـيطان يـومه ذلـك حـتى يمسى، ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلا رجـل عمل أكثر منه " [1] .

---

1 () رواه البخارى ؛ (6/338، 339) بدء الخلـق، ومسـلم (17/17) الذكـر، والترمذى (13/16،17) . الدعاء .

وعن جابر عن النبى قال: " من قال سبحان الله وبحمده غرست له نخلة فى الجنة "[1].

وقال ابن مسعود : " لأن أسبح الله تعالى تسبيحات أحب إلىّ من أن أنفق عددهم دنانير فى سبيل الله عزّ وجلّ " .

والذكر دواء لقسوة القلوب ، كما قال رجل للحسن : يا أبا سعيد : أشكو إليك قسوة قلبى ، قال : " أذبه بالذكر " ، وقال مكحول : " ذكر الله شفاءٌ وذكر الناس داءٌ "، قال رجل لسلمان: أى الأعمال أفضل ؟ فقال : أما تقرأ القرآن : **وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ** (العنكبوت من الآية : 45).

وعن أبى موسى عن النبى قال: " مثل الذى يذكر ربه والذى لايذكر ربه مثل الحىّ والميت "[2].

---

1 () رواه الترمذى (3531 تحفة) الدعوات، وابن حبان (2335) موارد، والحاكم (1/501، 502) وقال الترمذى : حسن صحيح وقال الحاكم : صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبى وصححه الألبانى فى الصحيحة .

2 () رواه البخارى (11/208) الدعوات، ومسلم (6/68) صلاة المسافرين بلفظ : " مثل البيت الذى لا يذكر الله فيه ، والبيت الذى يذكر الله فيه مثل الحىّ والميت " .

ودوام الذكر تكثير لشهود العبد يوم القيامة ، وسبب لاشتغال العبد عن الكلام الباطل من الغيبة والنميمة وغير ذلك، فإما لسان ذاكر وإما لسان لاغٍ، فمن فُتح له بابُ الذكر فقد فُتح له بابُ الدخول على الله عز وجل، فليتطهر وليدخل على ربه عز وجل ، يجد عنده ما يريد، فإن وجد ربه عز وجل وجد كل شىء ، وإن فاته ربه عز وجل فاته كل شىء .

وللذكر أنواع : منها : ذكر أسماء الله عز وجل ، وصفاته ، ومدحه، والثناء عليه بها، نحو : " **سبحان الله** " ، و " **الحمد الله** " ، و " **لا إله إلا الله** " ، ومنها: الخبر عن الله عز وجل بأحكام أسمائه وصفاته ، نحو : الله عز وجلّ يسمع أصوات عباده ويرى حركاتهم ، ومنها : ذكر الأمر والنهى كأن تقول : إن الله عز وجل أمر بكذا ، ونهى عن كذا .

ومن ذكره سبحانه وتعالى ذكرُ آلائه وإحسانه ، وأفضل الذكر : تلاوة القرآن ، وذلك لتضمنه لأدوية القلب وعلاجه من جميع الأمراض ، قال الله تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاء لِّمَا فِي الصُّدُورِ** ﴾ (يونس من الآية : 57) .

وقال الله تعالى: ﴿ **وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاء وَرَحْمَةٌ لِّلْمُـؤْمِنِينَ** ﴾ (الإسراء من الآية : 82)

وأمراض القلب تجمعها أمراض الشبهات والشهوات ،والقرآن شفاء للنوعين ، ففيه من البينات والبراهين القطعية ما يبين الحق من الباطل فتزول أمراض الشبه المفيدة للعلم، والتصور ، والادراك بحيث يرى الأشياء على ما هى .

فمن درس القرآن وخالط قلبه ، أبصر الحق والباطل وميزّ بينهما، كما يميز بعينيه بين الليل والنهار ، وأما شفاؤه لمرض الشهوات فذلك بما فيه من الحكمة والموعظة الحسنة، بالتزهيد فى الدنيا ، والترغيب فى الآخرة.

وبالجملة فأنفع شىء للعبد هو ذكر الله عزّ وجلّ : ﴿ **أَلاَ بِذِكْرِ اللّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ** ﴾ (الرعد :28) .

وأفضل الذكر تلاوة كتاب الله عزّ وجلّ .

قال الله تعالى: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ** ﴾ (فاطر :29 - 30) .

وعن عثمان ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: " خيركم من تعلم القرآن وعلمه " [1] .

وعن عائشة (رضى الله عنها) قالت : قال رسول الله ﷺ :" الذى يقرأ القرآن وهو ماهر فيه مع السفرة الكرام البررة ، الذى يقرأ القرآن وهو يتعتع فيه وهو عليه شاق له أجران " [2] .

وعن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: " إن من قرأ حرفاً من كتاب الله تعالى فله حسنة والحسنة بعشر أمثالها لا أقول ألم

---

1 () رواه البخارى (9/66/67) فضائل القرآن، والترمذى (11/32) ثواب القرآن ، وأبو داود (1439) الصلاة .

2 () رواه البخارى (8/691) التفسير ، ومسلم (6/84) صلاة المسافرين ، وأبو داود (1441) الصلاة ، والترمذى (12/29) فضائل القرآن .

حرف ولكن ألف حرف ولام حرف وميم حـرف "[3] .

وقال خباب : " تقرب إلى الله مـا اسـتطعت فإنك لن تتقرب إليه بشىء أحب إليه من كلامه " .

وقـال عثمـان بـن عفـان : " لـ و طهـرت قلوبكم ما شبعتم من كلام ربكم " .

وقال ابن مسعود : " من كان يحب أن يعلـم أنه يحب الله فليعرض نفسه على القـرأن ، فـإن أحب القرآن فهـو يحـب اللـه فإنمـا القـرآن كلام الله ".

2 - الإستغفار:

وهو طلب المغفرة ، والمغفرة : هى وقايـة شـر الذنوب مع سترها وقد كـثر ذكـر الاسـتغفار فـى القرآن ، فتارة يؤمر به كقوله سبحانه وتعالى : **وَاسْـتَغْفِرُوا اللَّـهَ إِنَّ اللَّـهَ غَفُـورٌ رَّحِيـمٌ** (المزمل من الآية : 20) .

---

[3] () رواه الترمذى (11/34) فضـائل القـرآن ، وقـال : هـذا حـديث حسن صحيح .

وتـــارة يمـــدح أهلـــه كقـــوله تعـــالى: ﴿ **وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ** ﴾ (آل عمـران مـن الآية : 17) .

وتارة يذكر أن اللـه يغفـر لمـن اسـتغفره كقـوله تعالى: ﴿ **وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِـمْ نَفْسَـهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللّهَ يَجِدِ اللّـهَ غَفُـورًا رَّحِيمًـا** ﴾ (النساء من الآية : 110) .

وكثيراً ما يقرن الاستغفار بـذكر التوبـة ، فيكـون الاسـتغفار حينئـذ عبـارة عـن طلـب المغفـرة باللسان .

والتوبة عبارة عـن: الإقلاع عـن الـذنوب بـالقلب والجوارح ، وحكم الاستغفار كحكم الداء ، فـإن شاء الله أجابه وغفر لصـاحبه ، لاسـيما إذا خـرج عن قلب منكسر بالـذنوب أو صـدف سـاعة مـن ساعات الإجابة كالأسحار وإدبار الصلوات .

ويروى عن لقمـان أنـه قـال لابنـه: يـا بنـى عـوّد لسانك : " اللهم اغفر لى " فـإن للـه سـاعات لا يـرد فيهـا سـائلاً ،وقـال الحسـن: " أكـثروا مـن الاستغفار فـى بيـوتكم ، وعلـى موائـدكم ، وفـى طرقكـم ، وفـى أسـواقكم، وفـى مجالسـكم ،

وأينما كنتم ، فإنكم ما تدرون متى تنزل المغفرة " .

وعن ابن عمر قال: " إن كنا لنعد لرسول الله فى المجلس الواحد مائة مرة يقول : "رب اغفر لى وتب علىّ إنك أنت التواب الغفور"[1].

وعن أبى هريرة عن النبى أنه قال: " والله إنى لأستغفر الله وأتوب إليه فى اليوم أكثر من سبعين مرة "[2] .

وعنه قال: " إنه ليغان على قلبى وإنى لأسغفر الله فى اليوم مائة مرة " .[3]
وبيّن الله عز وجل فى الحديث القدسى ثلاثة أسباب من أعظم أسباب المغفرة ، عن أنس قال : قال رسول الله : ق ال الله تعالى : " ياابن آدم إنك ما دعوتنى ورجوتنى غفرت لك ما كان منك ولا أبالى، يابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتنى غفرت لك ، ياابن

---

1 ()رواه أحمد(4726),أبو داود(1500)الصلاة,وبن ماجة(3815)الأدب وصححه الألباني

2 () رواه رواه البخاري (11/101)الدعوات , ومسلم عن ابن عمر (17/24) الذكر بلفظ **"فإني أتوب إليه في اليوم مائة مرة"**

3 () رواه مسلم (17/23) الذكر , وأبو داود (1501) الصلاة وقوله **"ليغان"** أي ليغطي ويغشى , والمراد به السهو .

آدم لو أتيتنى بقراب الأرض خطايا ثـم لقيتنـى لا تشرك بى شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة " .

وبالجملة فدواء الذنوب الاستغفار ، قـال قتـادة : إن هذا القرآن يدلكم على دائكم ودواءكـم فأمـا داؤكم فالذنوب ، وأما دواؤكم بالاستغفار ، وقال علىّ : ما ألهـم اللـه سـبحانه عبـداً الاسـتغفار وهو يريد أن يعذبه .

3- الدعاء :

قـال اللـه تعـالى: **وَقَـالَ رَبُّكُـمُ ادْعُـونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ** (غافر:من الآية : 60) . فأمرنا الله عز وحل بالدعاء ووعدنا بالإجابة ، ثم عقـب بقوله عز وجـل : **إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَـنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ** (غافر : من الآية : 60) .
فسبحان الله العظيم ، ذى الكرم الفياض والجود المتتـابع ، جعـل سـؤال عبـده لحـوائجه وقضـاء مآربه عبادة له ، وطلبه منه وذمه على تركه بأبلغ أنواع الذم فجعله مستكبراً عليه.

وعن أبى هريرة عـن النـبى أنـه قـال: " من لم يسأل الله يغضب عليـه " [1] ومـا أحسـن قول القائل :

لا تسألن بنى آدّمَ حاجـَةً وسَلَ الذى أبوابُهُ لا تحْجَبُ.

الله يغضبُ إن تركتَ سُؤالَهُ وإذا سألت بنى آدم يغضَبُ.

وقال عز وجل : **أَمَّن يُجِيـبُ الْمُضْـطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ** (النمل: من الآية : 62) .

وقال تعالى: **وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَـادِي عَنِّـي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ** (البقرة : من الآية : 186) .

وعـن النعمـان بـن بشـير قـال: قـال : " الدعاء هو العبادة " ثم تلا الآية : **وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ**

---

[1] () رواه أحمد (2/442) ، والترمـذى (12/267، 268) التفسـير ، وابن ماجـه (3827) الـدعاء، والبخـارى فـى الأدب المفـرد (658) ، والحاكم (1/491) ، صححه ووافقه الألبانى .

عَنْ عِبَـادَتِي سَـيَدْخُلُونَ جَهَنَّـمَ دَاخِرِيـنَ
(غافر: الآية : 60) [1].

والدعاء يقطع بقوله لعمـوم الآيـات الـتى قـدمنا ذكرها ، وكـذلك الأحـاديث الآتيـة - إذا استـوفى شروط الصحة .

وعن سلمان قال: قال رسول الله : " إن الله حيىٌّ كريم يستحى إذا رفع الرجـل يديه أن يردهما صفـراً خائبتـين " . [2]

وعن أبى سعيد الخدرى ، أن النبى قـال : " ما مـن مسـلم يـدعو بـدعوة ليـس فيهـا إثـم ولا قطيعة رحم إلا أعطاه الله بها إحـدى ثلاث : إمـا أن يعجلله دعوته ، وإما أن يـدخرها فـى الآخـرة، وأما أن يصرف عنه من السوء مثلها" . [3]

---

[1] () رواه أبوداود (1446) الصلاة , والترمذي (12/267)التفسير وقال حسـن صـحيح , وأبـن ماجـة (3828)الـدعاء , والحـاكم (1/491) , وصححه ووافقه الألباني .

[2] () رواه الترمذى (13/68) الدعاء ، وقال : حسن غريب ، وأبو داود (1474) الصـلاة ، ابـن حبـان (2399) مـوارد ، والحـاكم (1/497) وصححه ووافقه الذهبى.

[3] () رواه الحاكم (1/493)، وصححه ووافقه الذهبى، لـه شـاهد رواه الترمذى (3621) عن جابر قال : سمعت رسول الله [illegible]

وعن عمر بن الخطاب : " أنا لا أحمل همّ الإجابة ولكن أحمل هم الدعاء فمن ألهم الدعاء فإن الإجابة معه " .

فالدعاء سبب مقتضٍ للإجابة إذا توفرت الشرائط وانتفت الموانع أى إذا راعى العبد آداب الدعاء ، فما هى آداب الدعاء ؟.

آداب الدعاء

أن يترصد لدعائه الأوقات الشريفة: كيوم عرفة من السنة، ورمضان من الأشهر ، ويوم الجمعة من الأسبوع ، ووقت السحر من الليل.

أن يغتنم الأحوال الشريفة: كنزول المطر، وزحف الصفوف فى سبيل الله ، وحال السجود ، لحديث أبى هريرة عن رسول الله قال : " أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فأكثروا من الدعاء " .[1]

وكذلك بين الأذان والإقامة ، لقوله : " الدعاء بين الأذان والإقامة لا يرد "[2].

---

1 () رواه مسلم (4/200) الصلاة ، وأبو داود (3/128) الصالة ، والنسائى (2/226) الصلاة .

2 () رواه الترمذى (2/13) أبواب الصلاة وحسنه ، وأبو داود (517) الصلاة ، وصححه الألبانى.

أن يجزم بالدعاء ، ويوقن بالإجابة ، قـال : " لا يقولن أحدكم : اللهم اغفر لى إن شئت اللهـم ارحمنـى إن شـئت ، ليعـزم المسـألة فـإنه لا مستكره له " [1].

أن يكـون علـى طهـارة ، مسـتقبل القبلـة ، ويكرر الدعاء ثلاثاً .

عن ابن سمعود قـال: كـان رسـول اللـه إذا دعا ، دعا ثلاثاً ، وإذا سأل سأل ثلاثاً . [2]

يبدأ بحمد الله عزّ وجلّ ، ويثنـى عليـه بأسـمائه ، وصفاته ، وآلائه ، ويثنى بالصلاة على رسول اللـه ثم يسمى حاجته ، ويختتم كذلك بالصلاة علـى رسول الله وحمد الله عز وجل .

ويطيب مطعمه ، ولا يدعو بـإثم ، ولا بقطيعة رحم .

ولا ينبغى تعجل الإجابة ، ولا يقـول : دعـوت ول م يستجب لى، لحديث أبى هريرة أن رسول اللـه قال : " : يستجاب لأحدكم ما لـم يعجـل يقـول : دعوت فلم يستجب لى " [3] .

قال ابن بطال : " المعنـى أنـه يسـأم فيـترك الدعاء فيكـون كالمـانّ بـدعائه، أو أنـه آتـى مـن

---

1 () رواه البخارى (11/139) الدعوات، ومسلم (17/6) الذكر .

2 () رواه مسلم (12/152) الجهاد والسير .

3 () رواه البخـارى (11/140) الـدعوات ، وسـملم (17/51) الـذكر، والترمذى (12/276) الدعاء ، وأبو داود (1470) الصلاة .

الدعاء ما يستحق به الإجابة، فيصبر كالمبخل للرب الكريم الذى لاتعجزه الإجابة ولا ينقصه العطاء " أ.هـ.

وفي هذا الحديث أدب من آداب الدعاء ، وهو أن يلازم الطلب ولا ييأس من الإجابة ، لما فى ذلك من الاستسلام والانقياد وإظهار الافتقار .

4- الصلاة على النبى :

قال الله تعالى: **إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا** (الأحزاب: الآية : 56) .

قال ابن كثير رحمه الله: المقصود من هذه الآية أن الله سبحانه وتعالى أخبر عباده بمنزلة عبده ونبيه عنده فى الملأ الأعلى بأنه يثنى عليه فى الملأ الأعلى عند الملائكة المقربين وأن الملائكة تصلى عليه، ثم أمر تعالى العالم السفلى بالصلاة والتسليم عليه ليجتمع الثناء عليه من أهل العالمين العلوى والسفلى جميعاً .

وقال ابن القيّم : والمعنى أنه إذا كـان اللـه وملائكته يصلون على رسوله فصـلوا أنتـم أيضـاً عليه لما نالكم ببركة رسالته ويُمن سـفارته مـن خير شرف الدنيا والآخرة ، والصلاة من الله عـزّ وجل هى الثناء وإظهار الشرف، وإرادة التكريم ، وصـلاة المخلـوقين الـدعاء بمزيـد مـن الشـرف والتكريم .

عن أبى هريرة أن رسول اللـه قـال : " من صلىّ علىّ واحدة صلّى اللـه عليـه عشـراً " [1] .

أى عشر صلوات وذلك لأن الحسـنة بعشـر أمثالهـا والصـلاة علـى النـبى مـن أعظـم الحسنات .

قـال ابـن العربـى : " إن قيـل : قـال اللـه تعـالى : **مَـن جَـاء بِالْحَسَـنَةِ فَلَـهُ عَشْـرُ أَمْثَالِهَا** (الأنعام : من الآية : 160) .
فما فائدة هذا الحديث؟ قلنا : أعظم فائـدة وذلـك أن القـرآن اقتضـى أن مـن جـاء بحسـنة تضاعف عشـرة ، والصـلاة علـى النـبى حسـنة بمقتضـى القـرآن أن يعطـى عشـر درجـات فـى

---

[1] () رواه مسلم (4/128) الصلاة ، والترمذى (2/270) الصلاة ، وأبو داود (1516) الصلاة ، والنسائى (3 /50) السهو .

الجنـة ، فـأخبر أن اللـه تعـالى يصـلّى علـى مـن صـلى علـى رسـوله عشـراً ، وذكْـرُ اللـه للعبـد أعظم من الحسنة مضاعفة، ويحقق ذلك أن الله تعـالى لـم يجعـل جـزاء ذكـره إلا ذكـره، وكـذلك جعل جزاء ذكر نبيه ذكر من ذكره " أ. هـ .

قال العراقى: ولم يقتصـر علـى ذلـك حـتى زاده كتابــة عشــر حســنات، وحــط عنــه عشــر ســيئات، ورفعــه عشــر درجــات، كمــا ورد فــى الأحاديث .

وعن أبى هريرة قـال : قال رسول اللــه : " رغم أنف رجل ذكرت عنده فلم يصلّ علــىّ ، ورغم أنـف رجـل أدرك أبـويه عنـده الكبــر فلـم يـدخلاه الجنــة، ورغــم أنــف رجــل دخــل عليــه رمضـان ثم انسلخ قبل أن يغفـر له" [1] .

وعن عبد الله بن مسعود عن النبى قـال : " إن للـه ملائكـة سـياحين يبلغـونى مـن أمـتى السلام "[2] .

---

1 () رواه الترمذى (6413 تحفة) الدعاء، وقال : هـذا حـديث حسـن غريب من هذا الوجه والحاكم (1/549) الدعاء مقتصراً على الفقــرة الأولى ، وقال الألبانى : إسناده صحيح رجاله رجال الصحيح.

2 () رواه النسـائى (3/43) السـهو ، والحـاكم (2/421) التفسـير، وصححه ووافقه الذهبى، وقال الألبانى : إسـناده صـحيح رجـاله رجـال الصحيح .

وعن عبد الله بن عمرو قال : قال رسـول الله : " من صـلى علـىّ أو سـأل لـى الوسـيلة حقت عليه شفاعتى يوم القيامة " [1].

وعن أبى هريرة قال : قال رسول الله : " م ا جلـس قـوم مجلسـا لـم يـذكروا اللـه ولـم يصلوا على نبيهم إلا كان مجلسهم عليهـم تـرة يوم القيامة، إن شاء عفا عنهم وإن شـاء أخـذهم "[2].

ويستحب كثرة الصـلاة علـى رسـول اللـه يوم الجمعة لحديث أوس ابن أوس قال ك قال رسول الله : " من أفضل أيامكم يوم الجمعـة، فيه خلق آدم، وفيـه قبـض ، وفيـه النفخـة، وفيـه الصـعقة، فـأكثروا علـىّ مـن الصـلاة ففيـه فـإن صـلاتكم معروضـة علـىّ، قـالوا : يارسـول اللـه وكيف تعرض صـلاتنا عليـك وقـد أرمـت[3] يعنـى بليت ؟ فقـال : " إن اللـه عـز وجـل حـرّم علـى الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء "[4] .

---

1 () رواه مسـلم (4/85) الصـلاة ، وأبـو داود (519) الصـلاة ، والترمذى (13/102) المناقب ، والنسائى (2 /25، 26) الأذان .

2 () رواه الترمذى (3440 تحفة) الدعاء، وحسنه وصححه الألبانى فى الصحيحة، ومعنى ترة : أى حسرة.

3 () رواه أبوداود (1034) الصلاة، والنسـائى (3/91، 92) الجمعـة، وابـن مـاجه (1085) الصـلاة ، والحـاكم (1/278) الجمعـة، وصـححه على شرطهما، ووافقه الذهبى على شرط البخارى، وصححه الألبـانى .

4 () رواه مسلم (4/124، 125) الصـلاة ، ومالـك فـى الموطـأ (1/ 165، 166) ، والترمذى (12/95) السهو ، والنسائى (3 /45، 46) .

أما صيغة الصلاة على رسول الله :

فعـن ابـن مسـعود الأنصـارى قـال : " أتانـا رسول الله ونحن فى مجلس سعد بـن عبـادة، فقال له بشير بـن سـعد : أمرنـا اللـه أن نصـلى عليك يارسول الله، فكيف نصـلى عليـك ؟ قـال: فسكت رسول الله حتى تمنينا أنه لـم يسـأله ، ثم قال رسول الله : قولوا : " اللهم صلّ علـى محمـد وعلـى آل محمـد ، كمـا صـليت علـى آل إبراهيم، وبـارك علـى محمـد، وعلـى آل محمـد، كما باركت على آل إبراهيـم فـى العـالمين، إنـك حميدٌ مجيد، والسلام كما قد علمتم " .

5 - قيام الليل

الآيات فى فضيلة قيام الليل :

قال الله تعالى : **كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْـلِ مَا يَهْجَعُونَ وَبِاللأسْحَارِ هُمْ يَسْـتَغْفِرُونَ** (الذاريات: الآية : 17ـ 18) . وهى فى وصـف المحسنين .

عن قتادة ومجاهد قالا: كانوا لاينـامون ليلـة حتى الصباح .

وعن ابن عباس : لم تكن تمضى عليهم ليلة إلا يأخذوا منها شيئاً .

وقال تعالى فى وصف عباد الرحمن : ﴿ **وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا** ﴾ (الفرقان: الآية : 64) .

وذكر الله تعالى هذه العبادة الجليلة ثم عقبها بالجزاء فقال تعالى : ﴿ **تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ** ﴾ (السجدة : الآية : 16) .

ثم عقب بقوله تعالى : ﴿ **فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاء بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾ (السجدة : الآية : 17) .

ولما أخفوا العمل واستتروا بجنح الظلام أخفى الله عز وجل لهم الأجر .
أما الأخبار فقوله ﷺ : " أفضل الصلاة بعد المكتوبة قيام الليل " [1] .

---

[1] () رواه مسلم (8/55) الصيام ، وأبو داود (2412) الصوم، والترمذى (2/227) الصلاة ، والنسائى (3 /207) قيام الليل .

وعن عاشئة رضى الله عنها قـالت : " كـان رسول الله يصلى ما بيـن أن يفـرغ مـن صـلاة العشاء إلى الفجر إحدى عشر ركعـة يسـلم بيـن كل ركعتين ويوتر بواحدة " [1] .

وفى الخبر إنه ذكـر عنـده الرجـل ينـام كـل الليـل حـتى يصـبح فيقـال : " ذاك رجـل بـال الشيطان فى أذنيه " [2] .

وعن أبـى هريـرة قـال رسـول اللـه : " يعقد الشـيطان علـى قافيـة أحـدكم إذا هـو نـام ثلاث عقد، يضـرب مكـان كـل عقـدة عليـك ليـل طويـل فارقـد، فـإذا اسـتيقظ وذكـر اللـه تعـالى انحلت عقـدة ، فـإن توضـأ انحلـت عقـدة ، فـإن صلى انحلت عقدة، فأصبح نشيطاً طيب النفـس وإلا أصبح خبيث النفس كسلان "[3] .

الآثار

كـان ابـن مسـعود إذا هـدأت العيـون قـام فيسمع له دويّ كدويّ النحل حتى يصبح .

---

1 () رواه البخارى (3/7) التهجد ، ومسلم (6/ 16) ، الصلاة .

2 () رواه البخـارى (3/34) التهجـد، ومسـلم (6/63، 64) صـلاة المسافرين .

3 () رواه البخـارى (3/30) التهجـد ،ومسـلم (6/65 ، 66) صـلاة المسافرين .

قيل للحسـن : مـا بـال المتهجـدين أحسـن النـاس وجوهـاً ؟ قـال : " لأنهـم خلـوا بـالرحمن فألبسهم نوراً من نوره " .
وقال : " إن الرجل ليذنب الذنب فيحرم به قيام الليل " .

وقال رجل لأحد الصالحين : لا أستطيع قيام الليل فصف لى دواءاً ، فقـال : لا تعصـه بالنهـار وهو يقيمك بين يديه بالليل .

ويـروى عـن سـفيان الثـورى أنـه قـال : " حرمت قيام الليل خمسة أشهر بذنب أصبته ".

وقال ابن المبارك :

إذا ما الليل أظلم كابدونه
فيسفر عنهم وهم هجـــوع

أطار الخوف نومهم فقاموا وأهل
الأمن فى الدنيا هجوع

وقال أبو سليمان : " أهل الليـل فـى ليلهـم ألذ من أهـل اللهـو فـى لهـوهم، ولـولا الليـل مـا أحببت البقاء فى الدنيا " .

قال ابن المنكدر : " ما بقى من لذات الدنيا إلا ثلاث : قيـام الليـل ، ولقـاء الإخـوان ، وصـلاة الجماعة " .

6- الزهد فى الدنيا وبيان حقارتها

الزهد : هوانصراف الرغبة عن الشىء إلى ماهو خير منه، وأما العلم المثمر لهذه الحال فهو العلـم بكـون المـتروك حقيـراً بالإضـافة إلـى المـأخوذ فمـا عـرف أن مـا عنـد اللـه بـاقٍ ، وأن الآخرة خير وأبقى كما أن الجوهر خير وأبقَى من الثلـج، فالـدنيا كالثلـج الموضـوع فـى الشـمس لايـزال فـى الـذوبان إلـى الانقـراض ،والآخـرة كالجوهر الذى لافناء له ، وبقدر اليقين بالتفـاوت بين الدنيا والآخرة تقوى الرغبـة فـى الـبيع، وقـد مدح القرآن الزهد فى الدنيا وذم الرغبة فيها.

فقـال تعـــالى : ﴿ **بَـلْ تُـؤْثِرُونَ الْحَيَـاةَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى** ﴾ (الأعلى: الآية : 16-17) .

وقـال تعـالى : ﴿ **تُرِيـدُونَ عَـرَضَ الـدُّنْيَا وَاللّـهُ يُرِيـدُ الآخِـرَةَ** ﴾ (الأنفال: من الآيـة : 67) .

وقال تعالى : ﴿ **وَفَرِحُواْ بِالْحَيَـاةِ الـدُّنْيَا وَمَا الْحَيَـاةُ الـدُّنْيَا فِـي الآخِـرَةِ إِلاَّ مَتَـاعٌ** ﴾ (الرعد: من الآية : 26) .

والأحاديث فى ذم الدنيا وزبيان حقارتها عند الله كثيرة جداً .

عن جابر ﷺ أن النبى ﷺ مـرّ بالسـوق والنـاس كنفتيه ، فمر بجدى أسك ميت فتناوله فاخذ بأذنه ، فقال : " أيكم يحب أن هذا له بدرهم " فقالوا : ما نحب أنه لنـا بشـىء ومـا نصـنع بـه ؟ قـال : " أتحبون أنه لكم " قالوا : والله لو كـان حيـاً كـان عيباً فيه أنـه أسـكّ فكيـف وهـو ميـت؟ فقـال: " والله للدنيا أهون على الله من هذا عليكم " [1].

وعن المستورد بن شداد الفهرى عن النـبى ﷺ قال: " ما الدنيا فى الآخـرة إلا مثـل مـا يجعـل أحدكم إصبعه فى اليم فلينظر بم يرجع"[2] .

---

1 () رواه مسلم (18/93) الزهد، وأبو داود (184) الطهارة ، وقوله : " والناس كنفتيه " أى حوله وفيه أدب سـير طلاب العلـم مـع العـالم ، وقوله: " أسك " أى صغير الأذنين .

2 () رواه مسلم (18/93) الجنة وصفة نعيمها ، والترمـذى (9/199) الزهد ، ابن ماجه (4108) .

وعن سهل بن سعد عن النبى قـال : " لـو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سـقى كافراً منها شربة ماء " [3] .

فالزهــد : هــو الإعــراض عــن الشــىء لاستقلاله، واحتقاره،وارتفاع الهمة عنـه ، يقـال : شىء زهيد أى قليل حقير .

قال يونس بن ميسرة : " ليس الزهادة فى الدنيا بتحريـم الحلال ، ولا إضـاعة المـال، ولكـن الزهادة فى الدنيا أن تكون بما فى يد اللـه أوثـق منك بما فى يدك، وأن تكون حالك فـى المصـيبة وحالك إذا لم تصب بها سواء وأن يكون مـادحكم وذامّكم فى الحق سواء " .

ففسر الزهد في الدنيا بثلاثة أشياء كلها من أعمال القلوب لامن أعمال الجوارح، ولهـذا كـان أبو سليمان يقول : لاتشهد لأحد بالزهد .

أحدها : أن يكـون العبـد بمـا فـى يـد اللـه أوثق منه بما فى يد نفسه، وهذا ينشأ من صـحة اليقين وقوته ، قيل لأبى حازم الزاهد: ما مالك ؟

---

3 () رواه الترمـذى (9/198) الزهـد، وقـال : صـحيح الإسـناد ولـم يخرجاه وقال الذهبى: زكريـا ضـعفوه، وقـال الألبـانى : والصـواب أن الحـديث صـحيح لغيـره فـإن لـه شـواهد تقـويه وانظـر شـواهده فـى الصحيحة رقم 943.

قال : " مالان لا أخشى معهما الفقر : الثقة بالله ، واليأس مما فى أيدى الناس ".

وقيل له : أما تخاف الفقر ؟ فقل : " أنا أخاف الفقر ومولاى له ما فى السموات ، وما فى الأرض ، وما بينهما ، وما تحت الثرى ؟ " .

قال الفضيل : أصل الزهد : الرضى عن الله عزّ وجلّ .

وقال : القنوع هو الزاهد، وهو الغنى ، فمن حقق اليقين، وثق بالله فى أموره كلها ، ورضى بتدبيره له ، وانقطع عن التعلق بالمخلوقين رجاءاً وخوفاً ، ووضعه ذلك من طلب الدنيا بالأسباب المكروهة، ومن كان كذلك كان زاهداً حقاً ، وكان من أغنى الناس ، وإن لم يكن له شىء من الدنيا ، كما قال عمار : كفى بالموت واعظاً ، وكفى باليقين غنى، وكفى بالعبادة شغلاً " .

وقال ابن مسعود : " اليقين أن لا تُرضى الناس بسخط الله، ولا تحسد أحداً على رزق الله ، ولا تلم أحداً على مالم يؤتك الله ، فإن رزق الله لا يسوقه حرص حريص ، ولا يرده كراهية كاره، فإن الله يقسطه ، وعلمه ،

وحكمتــه ، جعــل الــروح والفــرح فــى اليقيــن والرضــى، وجعــل الهــم والحــزن فــى الســخط والشك " .

الثانى : أن يكون العبد إذا أصـيب بمصـيبة فى دنياه : من ذهاب مال، أو ولد، أو غيـر ذلـك ، أرغب فى ثواب ذلك مما ذهب منه من الـدنيا أن يبقى له، وهذا أيضاً ينشأ من كمال اليقين.

قال علىّ كرم الله وجهه : " مـن زهـد فـى الـدنيا هـانت عليـه المصـيبات ". وقـال بعـض السلف : لولا مصائب الدنيا لوردنـا الآخـرة مـن المفاليس .

الثــالث : أن يســتوى عنــد العبــد مــادحه وذامه فى الحق، وإذا عظمـت الـدنيا فـى قلـب العبد اختار المدح وكره الذم ، وربما حملـه ذلـك على ترك كثير من الحق خشية الذم، على فعـل كثير من الباطل رجاء المدح.

فمن استوى عنده حامده وذامه فـى الحـق دلّ علـى سـقوط منزلـة المخلـوقين مـن قلبـه وامتلاه من محبة الحق، ومـا فيـه رضـى مـولاه، كما قـال ابـن مسـعود : " اليقي ن أن لا ترضـى الناس بسخط الله " .

وقد مدح الله عزّ وجلّ الذين يجاهدون فـى سـبيله ، ولا يخـافون لومـة لائـم، وقـد ورد عـن السلف روايات أخرى فى تفسير الزهد.

قال الحسن : " الزاهد الـذى إذا رأى أحـداً قال : هـو أزهـد منـى ". وسـئل بعضـهم – أظنـه الإمام أحمد – عمن معه مال هل يكـون زاهـداً ؟ قال : " إن كان لايفرح بزيادته ولا يحـزن بنقصـه فهو زاهد " .

وقـال إبراهيـم بـن أدهـم : " الزهـد ثلاثـة أقسام : فزهد فرض ، وزهد فضل ، وزهد سلامة " .

فأما الزهـد الفـرض : فالزهـد فـى الحـرام ،والزهـد الفضـل : فالزهـد فـى الحلال ، الزهـد السلامة : فالزهد فى الشبهات .

وكل من باع الـدنيا بـالآخرة فهـو زاهـد فـى الدنيا ، وكل من باع الآخرة بالدنيا فهو زاهد أيضاً ، ولكن فى الآخرة .

قال رجل لإحد الصـالحين : مـا رأيـت أزهـد منك ، قال :أنت أزهد منى لقد زهدت فى دنيـا لا

بقاء لهـا، ولا وفـاء ، وأنـت زهـدت فـى الآخـرة ، فمن أزهد منك ؟ .

ولكـن العـادة جاريـة علـى تخصـيص اسـم الزهدعلى الزهد فى الدنيا، الزهد يكون فيما هـو مقدور عليه ولـذا قيـل لابـن المبـارك : يازاهـد ، قـال : " الزاهد هو عمر بن عبد العزيز إذ جـائته الدنيا راغمة فتركها وأما أنا ففى ماذا زهدت " .

قـال الحسـن البصـرى : " أدركـت أقوامـاً وصحبت طوائف ، ما كانوا يفرحـون بشـىء مـن الدنيا أقبل ، ولا يأسفون على شـىء منهـا أدبـر، ولهى كانت فى أعينهم أهون من الـتراب ، كـان أحدهم يعيش خمسـين سـنة أو سـتين سـنة لـم يُطوَ له ثوبٌ ، ولم يُنصب له قدرٌ ، ولم يجعل بينه وبين الارض شيئاً، ولا أمَـرَ مَـنْ فـى بيتـه بصـنعة طعام قط ، فإذا كان الليل ، فقيام على أقدامهم يفترشـون وجـوههم ، تجـرى دمـوعهم علـى خدودهم يناجون ربهم فى فكـاك رقـابهم ، كـانوا إذا عملوا الحسنة دأبوا فى شكرها، وسألوا اللـه أن يقبلها، وإذا عملوا السـيئة أحزنتهـم ، وسـألوا الله أن يغفرها، فلم يزالوا علـى ذلـك ، ووالله : مـا سـلموا مـن الـذنوب ولا نجـوا إلا بـالمغفرة ، فرحمة الله عليهم ورضوانه ".

درجات الزهد

الدرجة الأولى

أن يزهده فى الدنيا وهو لها مُشـتَهٍ ، وقلبـه إليها مائل ، ونفسه إليها ملتفتـة، ولكـن يجاهـدها ويكفيها ، وهذا يسمى : متزهد .

الدرجة الثانية:

الذى يترك الدنيا طوعـاً لاسـتحقاره إياهـا ، بالاضافة غلى مـا طمـع فيـه، ولكنـه يـرى زهـده ،ويلتفت إليه، كالذى يترك درهماً لأجل درهمين.

الدرحة الثالثة :

أن يزهد فى الدنيا طوعاً ، ويزهد فى زهـده ، فلا يرى أنه ترك شيئا فيكون كمـن تـرك خَزَفَـةَ وأخذ جوهرةٌ .

ويمثل صاحب هذه الدرجة بمـن منعـه مـن الدخول على الملك كلبُ على بابه، فـألقى إليـه لقمة من خبز فشغله بها ، ودخـل علـى الملـك ،

ونال القرب منه فالشيطان كلبٌ على بـاب اللـه عز وجل ، يمنع الناس من الدخول ، مع أن الباب مفتوح والحجـاب مرفـوعٌ ، والـدنيا كلقمـة فمـن تركها لينال عز الملك فكيف يلتفت إليها.

ذم الدنيا

اعلم أن الـذم الـوارد فـى الكتـاب والسـنّة راجــع إلــى زمانهــا الــذى هــو الليــل والنهــار المتعاقبان إلى يوم القيامة ، فإن اللـه عـز وجـل جعلهما خلفة لمن أراد أن يذّكر أو أراد شُكوراً .

وورد فــى الأثــر : " إن هــذا الليــل والنهــار خزانتان فانتظروا ماتصنعون فيهما " .

وقال مجاهد : " ما من يوم إلا يقـول : ابـن آدم : قد دخلت ، عليك اليوم ولن أرجع إليك بعـد اليوم فانظر ماذا تعمل فى ، فإذا انقضى طـوى، ثم يختم عليه فلا يفك حتى يكون اللـه هـو الـذى يقضيه يوم القيامة " .

وأنشد بعضهم :

إنما الدنيا إلى الجنة والنار طريـقٌ والليـالى متجرُ الإنسان والأيـام سـوقٌ فـالوقت هــو رأس مال العبد ، وقد صح عن رسول الله أنه قــال : " من قال : سبحان الله وبحمده غرست له نخلة فى الجنة " [1] .

فانظر إلى مُضَيع الساعات كم يفـوته مـن النخيل .

وكان أحـد الصـالحين إذا أثقـل النـاس فـى الجلوس عنده يقول : "أما تريـدون أن تقومـوا ، إن ملك الشمس يجرها لا يفتر " .

وقال رجل لأحـد العلمـاء: " قـف أكلمـك " قـال : " أوقـف الشـمس " . وكـذلك ليـس ذم

---

[1] () تقدم تخريجه ص (39) .

الدنيا راجعاً إلى مكـان الـدنيا وهـو الأرض ، ومـا أودع فيها من جبال وبحار وأنهـار ومعـادن ، فـإن ذلك كله من نعم الله على عباده ، لما لهـم فيهـا مــن المنــافع ، والاعتبــار ، والاســتدلال علــى وحدانية الصانع سبحانه، وقدرته وعظمته ، وإنما الذم راجع إلى أفعال بنى آدم الواقعة فى الدنيا ، لأن غالبهـا واقـع علـى غيـر الـوجه الـذى تحمـد عاقبته ، كمـا قـال عـز وجـل : ﴿ **اعْلَمُوا أَنَّمَـا الْحَيَـاةُ الـدُّنْيَا لَعِـبٌ وَلَهْـوٌ وَزِينَـةٌ وَتَفَـاخُرٌ بَيْنَكُــمْ وَتَكَــاثُرٌ فِــي الأَمْــوَالِ والأولادَ** ﴾ (الحديد : من الآية : 20) .

<u>وانقسم بنو آدم فى الدنيا إلى قسمين :</u>

أحدهما : من أنكر أن للعباد داراً بعد الـدنيا للثـواب، والعقـاب ، هـؤلاء هـم الـذين قـال اللـه فيهم : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا وَرَضُـواْ بِالْحَياةِ الدُّنْيَا وَاطْمَـأَنُّواْ بِهَـا وَالَّـذِينَ هُـمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ أُوْلَـئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ** ﴾ (يونس: الآية : 7 -8) .

وهؤلاء همهم التمتع فى الدنيا واغتنام لذاتها قبل المـوت كمـا قــال تعــالى : ﴿ **وَالَّذِينَ كَفَـرُوا**

يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأنعام وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿ (محمد : من الآية : 12) .

والقسم الثانى : من يقر بدار بعد الموت للثواب والعقاب ، وهم المنتسبون إلى المرسلين، وهم منقسمون إلى ثلاثة أقسام : ظالم لنفسه ومقتصد ، وسابق بالخيرات بإذن الله .

والظالم لنفسه : هم الأكثرون ، وأكثرهم واقف مع زهرة الدنيا وزينتها ، فأخذها من غير وجهها ، واستعملها فى غير وجهها ، وصارت الدنيا أكبر همّه ، بها يرضى ، وبها يغضب ، ولها يوالى ، وعليها يعادى ، وهؤلاء أهل اللعب واللهو والزينة ، وإن كانوا يؤمنون بالآخرة إيماناً مجملاً فهم لم يعرفوا المقصود من الدنيا ، ولا أنها منزلة يتزود فيها لما بعدها .

والمقتصد : من أخذ الدنيا من وجوهها المباحة، وأدى واجبها، وأمسك لنفسه الزائد على الواجب يتوسع به فى التمتع بشهوات الدنيا ، وهؤلاء لا عقاب عليهم فى ذلك إلا أنه ينقص درحاتهم كما قال عمر بن الخطاب ﷺ : لـ ولا أن تنقص من حسناتى لخالفتكم فى لين عيشكم ولكن سمعت الله عيّر قوماً فقال : ﴿ **أَذْهَبْتُمْ**

طَيِّبَاتِكُمْ فِـي حَيَـاتِكُمُ الـدُّنْيَا وَاسْـتَمْتَعْتُم بِهَا ﴿ (الأحقاف: من الآية : 20) .

وأما السـابق بـالخيرات بـإذن اللـه : فهـم الذين فهموا المراد من الدنيا وعملـوا بمقتضـى ذلك ، فعلموا أن الله إنما أسكن عبادة فى الـدار ليبلوهم أيهم أحسن عملاً كما قال تعالى : ﴿ **إِنَّـا جَعَلْنَا مَـا عَلَـى الأَرْضِ زِينَـةً لَّهَـا لِنَبْلُـوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً** ﴾ (الكهف: الآية : 7) .

يعنى : أزهد فى الدنيا وأرغـب فـى الآخـرة ، ثـم قال تعالى : ﴿ **وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا** ﴾ (الكهف: الآية : 8) .

فاكتفى السابقون منها بما يكفـى المسـافر مـن الزاد، كما قال النـبى ﷺ: " مـ الى وللـدنيا ، مـا أنـا فى الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها " [1] .

ووصى ابـن عمـر ﷺ : " كـ ن فـى الـدنيا كأنـك غريب أو عابر سبيل " [2] .

---

1 () رواه الترمذى (9/223) الزهد وقال : حسـن صـحيح، والحـاكم (4/301) الرقاق، وقال : صحيح على شرط الشيخين ووافقه الـذهبى، ورواه أحمد (1/391) وصححه الألبـانى فـى الصـحيحة بشـاهده رقـم 439).

2 () تقدم تخريجه ص (23) .

ومـتى نـوى مـن تنـاول شـهواته المباحـة التقوى على طاعة الله كانت شـهواته لـه طاعـة يثاب عليها ، كما قـال معـاذ : " إنى لأحتسـب نومتى كما أحتسب قومتى " .

قال سعيد بن جبير: " متاع الغرور ما يلهيك عن طلب الآخـرة، ومـا لـم يلهـك فليـس بمتـاع الغرور ولكن متاع بلاغ إلى ما هو خير منه " .

وقال يحيى بن معـاذ : " كيـف لا أحـب دنيـا قُدر لى فيهـا قـوت أكتسـب بـه حيـاة ، أدرك بـه طاعة ، أنال بها الجنة " .

وسُئل أبو صفوان الرعينـى: مـا هـى الـدنيا التى ذمها الله فى القـرآن والـتى ينبغـى للعاقـل أن يتجنبها ؟ ، فقال : " كل ما أصـبت فـى الـدنيا تريد به الـدنيا فهـو مـذموم، وكـل ماأصـبت منـا تريد به الآخرة فليس منها " .

وقال الحسن: " نعمت الدار الدنيا كانت للمؤمن ، وذلك أنه عمـل قليلاً وأخـذ زاده منهـا للجنـة ، وبئست الدار كانت للكافر والمنافق ، وذلـك أنـه ضيع لياليه وكان زاده منها إلى النار " .

قـال عـون بـن عبـد اللـه: " الـدنيا والآخـرة فـى القلب ككفتى الميزان مـا ترجـح إحـداهما تخـف الأخرى ".

وقال وهب: " إنما الدنيا والآخرة كرجـل له امرأتان إذا أرضى إحداهما أسخط الأخرى " .

وقال أبو الدرداء: " لئن حلفتم لى علـى رجل أنه أزهدكم لأحلفن لكم أنه خيركم " .

وقال رجل للتابعين: " لأنتم أكـثر عملاً من أصحاب رسـول اللـه ولكنهـم كـانوا خيـراً منكم ، كانوا أزهد فى الدنيا ".

أضرار حب الدنيا

حب الدنيا هو الذى عمّر النار بأهلها ، الزهد فى الدنيا هو الذى عمّـر الجنـة بأهلهـا ، والسـكر بحب الدنيا أعظم من السكر بالخمر، فصـاحبه لا يبيق إلا فى ظلمة اللحد.

قـال يحيـى بـن معـاذ: " الـدنيا خمـر الشيطان ، من سكر منها فلا يفيق إلا فى عسكر الموتى نادماً بين الخاسرين " ، وأقل ما فيها أنه يلهى عن حب الله وذكره ، ومن ألهاه ماله فهـو من الخاسرين ، وإذا لهـى القلـب عـن ذكـر اللـه سـكنه الشـيطان ، وصـرفه حيـث أراد ... ومـن

فقهه فى الشر أن يرضيه ببعض أعمال الخير ليريه أنه يفعل الخير.
ويقول ابن مسعود : " ماأصبح أحد فى الدنيا إلا ضيف وماله عارية ، فالضيف مرتحل والعارية مؤداة " .

قالوا: وإنما كان حب الدنيا رأس الخطايا ، ومفسداً للدين من وجوه:

أحدها : أن حبها يقتضى تعظيمها وهى حقيرة عند الله ،ومن أكبر الذنوب تعظيم ما حقّر الله .

ثانيها : أن الله لعنها ، ومقتها، وأبغضها، إلا ما كان له فيها ، ومن أحب ما لعنه الله ومقته وأبغضه فقد تعرض للفتنة ، ومقته وغضبه .

وثالثها : أنه إذا أحبها صيّرها غايته ، وتوسل إليها بالأعمال التى جعلها الله وسائل إليه وإلى الدار الآخرة، فعكس الأمر وقلب الحكمة، فها هنا أمران: أحدهما : جعل الوسيلة غاية ، والثانى : التوسل بأعمال الآخرة إلى الدنيا، وهذا شر معكوس من كل وجه ، وقلب منكوس غاية الانتكاس ، وهذا هو الذى انطبق عليه: حذْوَ القُذة بالقُذّة ، قوله تعالى : **مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ**

فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لاَ يُبْخَسُونَ أُوْلَـئِكَ الَّـذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّـارُ وَحَبِـطَ مَـا صَنَعُواْ فِيهَـا وَبَاطِـلٌ مَّـا كَـانُواْ يَعْمَلُـونَ ﴿
(هود: الآية : 15 - 16) .

والأحاديث كثيرة ، منها حـديث أبـى هريـرة فـى الثلاثة الذين هم أول من تسعّر بهم النار: الغازى ، والمتصـدق ، والقـارىء ، الـذين أرادوا بـذلك الدنيا ، والنصيب . وهو فى مسلم [1] .

فانظر محبة الدنيا كيف حَرَمتْ هؤلاء من الأجـر، وأفسدت عليهم عملهم ، وجعلتهم أول الداخلين إلى النار .

رابعاً : أن محبتها تعترض بين العبـد وبيـن فعـل مـا يعـود عليـه نفعـه فـى الآخـرة باشـتغاله عنـه بمحبـوه ، والنـاس هـا هنـا مراتـب : فمنهـم مـن يشغله محبـوبه عـن الإيمـان وشـرائعه ، ومنهـم من يشغله حبها عن كثير من الواجبـات ، ومنهـم من يشغله عن واجب يعارض تحصيلها – وإن قام بغيره – ومنهم من يشـغله عـن القيـام بـالواجب فى الوقت الذى ينبغى على الوجه الذى ينبغـى ، فيفرط فى وقته وفى حقوقه، ومنهم من يشغله عن عبودية قلبه فى الواجب ، وتفريغـه للـه عنـد

---

1 () رواه مسلم (13/50، 51) الجهاد والسير .

أدائه ، فيؤديه ظاهراً لا باطناً ، وأين هذا من عشاق الدنيا ومحبيها ، هذا من أندرهم وأقل درجات حبها أن يشغل عن سعادة العبد ، وهو تفريغ القلب لحب الله ، و لسانه لذكره ، وجمع قلبه على لسانه ، وجمع لسانه وقلبه على ربه ، فعشقها ومحبتها تضر بالآخرة ولا بد ، كما أن محبة الآخرة تضر بالدنيا .

خامساً : أن محبتها تجعلها أكبر همّ العبد، وقد روى الترمذى من حديث أنس بين مالك قال : قال رسول الله : " من كانت الآخرة همه جعل الله غناه فى قلبه ،وجمع له شمله ، وأتته الدنيا وهى راغمة، ومن كانت الدنيا همه ، جعل الله فقره بين عينيه ، وفرق عليه شمله، ولم يأته من الدنيا إلا ما قدر له " [1] .

سادسها : أن محبها أشد الناس عذاباً بها، وهو معذب فى دوره الثلاث : يعذب فى الدنيا بتحصيلها والسعى فيها ومنازعة أهلها، وفى دار البرزخ بفواتها والحسرة عليها ، وكونه قد حيل بينه وبين محبوبه على وجه لا يرجو اجتماعه به أبداً ، ولم يحصل له هناك محبوب يعوضه عنه، فهذا أشد الناس عذاباً فى قبره، يعمل الهمّ

---

[1] () رواه الترمذى (2583 تحفة) صفة القيامة وسكت عنه وقال الألبانى : وهو إسناد ضعيف لكنه حسن فى المتابعات وله شاهد عند ابن ماجه وابن حبان : وهو فى الصحيحة رقم 949.

والحـزنُ والغـم والحسـرة فـى روحـه مـا تعمـل الديدان وهوام الأرض فى جسمه .

والمقصـود: أن محـب الـدنيا يعـذب فـى قـبره ، ويعــذب يــوم لقــاء ربــه قــال تعــالى : ﴿ **فَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللّهُ لِيُعَـذِّبَهُم بِهَـا فِـي الْحَيَـاةِ الـدُّنْيَا وَتَزْهَـقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ** ﴾ (التوبة: الآية : 55) .

قال بعض السـلف : " يعـذبهم بجمعهـا، وتزهـق أنفسهم بحبها، وهم كافرون بمنع حق الله فيها " .

وسابعها : أن عاشـقها ومحبهـا الـذى يؤثرهـا على الآخرة من أسـفه الخلـق وأقلهـم عقلاً ، إذ آثر الخيال على الحقيقة، والمنام علـى اليقظـة، والظل الزائل على النعيم الدائم ، والدار الفانيـة على الدار الباقية، وباع حياة الأبد فى أرغد عيش بحيـاة إنمـا هـى أحلام نـوم، أو كظـل زائـل، إن اللبيب بمثلها لا يخدع.

وكان بعض السلف يتمثل هذا البيت :

يا أهل لذات دنيا لا بقاء لها إن اغتراراً بظل زائل حمق

قال يونس بن عبد الأعلى : " ما شبهت الدنيا إلا كرجل نام فرأى فى منامه ما يكـره ومـا يحـب ، فبينما هو كذلك انتبه " .

وأشبه الأشياء بالدنيا: الظـل تحسـب لـه حقيقـة ثابتة وهو فى تقلص وانقباض فتتبعه لتــدركه فلا تلحقــه، وأشــبه الأشــياء بهــا الســراب يحســبه الظمآن ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ، ووجـد الله عنده فوفاه حسابه ، والله سريع الحسـاب ، وأشبه الأشياء بها : عجوز شوهاء قبيحة المنظـر والمخبر ، غدارة بالأزواج، تزينـت للخطـاب بكـل زينة ، وسترت كل قبح، فاغتر بهامن لـم يجـاوز بصره ظاهرها، فطلب النكاح، فقالت : لا مهر إلا فقد الآخرة ، فإننا ضرتان ، واجتماعنا غير مأذون فيه ولا مستباح، فآثر الخطاب العاجلة ، وقـالوا : ما على مَن واصل حبيبته من جناح، فلمـا كشـف قناعها ، وحل إزارها، إذا كل آفـة وبليـة ، فمنهـم من طلق واسترح، ومنهم من اختار المقام، فمـا استتمت ليلة عرسه إلا بالعويل والصياح .

تالله لقد أذن مؤذنها على رؤوس الخلائـق ، بحــىّ علــى غيــر الفلاح، فقــام المجتهــدون

والمصلون لها فواصلوا فى طلبها الغدو بالرواح، وسـروا ليلهـم ، فلـم يحمـد القـوم السـرى عنـد الصباح،طاروا فى صيدها ، فما رجع أحد منهم إلا وهــو مكســور الجنــاح ، فوقعــوا فــى شــبكتها، فأسلمتهم للذبّاح .

7 - أحوال النفس ومحاسبتها :

اتفــق الســالكون إلــى اللــه علــى اختلاف طرقهم وتباين سولكهم على أن النفـس قاطعـة بين القب وبين الصول إلى الربّ ، وأنــه لايـدخل عليــه ســبحانه ولا يوصــل إليــه إلا بعــد إماتتهــا، وتركها بمخالفتها ، والظفر بها.

فإن الناس على قسمين: قسم ظفـرت بـه نفسه فملكته وأهلكتـه، وصـار طوعـاً لهـا تحـت أوامرهــا ، وقســمٌ ظفــروا بنفوســهم فقهروهــا فصارت طوعاً لهم ، منقادة لأوامرهم .

لا بعـض العـارفين: انتهـى سـفر الطـالبين إلـى الظفر أنفسهم ، فمن ظفر بنفسه أفلـح وأنجـح، ومن ظفرت ب ه نفسـه خسـر وهلـك ، قـال الل ه تعالى :

 فَأَمَّا مَن طَغَى وَآثَرَ الْحَيَاةَ الـدُّنْيَا فَـإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَـامَ

رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَـوَى فَـإِنَّ الْجَنَّـةَ هِيَ الْمَأْوَى
(النازعات: الآية : 37-41) .

والنفس تدع إلى الطغيان ، وإيثـار الحيـاة الـدنيا والربّ يدعو عبده إلى خوفه ونهـى النفـس عـن الهـوى، والقلـبُ بيـن الـداعيين، يميـل إلـى هـذا الـداعى مـرة , وإلـى هـذا مـرة ، وهـذا موضـع المحنة والإبتلاء ، وقد وصف الله سبحانه النفس فى القرآن بثلاث صفات : المطمئنة ، واللوامة ، والأمارة بالسوء فـاختلف النـاس : هـل النفـس واحدة وهذه أوصاف لها، أم للعبد ثلاثة أنفـس ؟ .

فالأول قول الفقهاء والمفسرين ، والثـانى قـول كثير من أهل التصوف، والتحقيق : أنه لانزاع بين الفريقين، فإنها واحدة باعتبار ذاتها وثلاثة باعتبار صفاتها .

النفس المطمئنة :

إذا سكنت النفس إلى اللـه عـزّ وجـلّ واطمـأنت بذكره، وأنابت إليه، واشتاقت إلى لقائه، وأنست بقربه ، فهى مطمئنة ، وهى التى يقـال لهـا عنـد الوفاة .

﴿ **يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً** ﴾ (الفجر : 27-28) .

قال ابن عباس ﷺ : المطمئنة المصدقة، وقال قتادة : هو المؤمن اطمأنت نفسه إلى ما وعد الله ، وصاحبها يطمئن في باب معرفة أسمائه وصفاته إلى خبره الذى أخبر عن نفسه وأخبر به عند رسوله ص ثم يطمئن إلى خبره عما بعد الموت من أمور البرزخ وما بعده من أحوال القيامة حتى كأنه يشاهد ذلك كله عياناً ،ثم يطمئن إلى قدر الله عزّ وجلّ فيسلم له ويرضى ن فلا يسخط ، ولا يشكو، ولا يضطرب إيمانه، فلا يأسى على ما فاته ، ولا يفرح بما آتاه ، لأن المصيبة فيهمقدرة قبل أن تصل إليه ، وقبل أن يخلق ، قال تعالى : ﴿ **مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ** ﴾ (التغابن : من الآية 11) .

قال غير واحد من السلف : هو العبد تصيبه المصيبة فيعلم أنا من عند الله فيرضى ويسلم .

وأما طمأنينة الإحسان فهى الطمأنينة إلى أمره امتثالاً وإخلاصاً ونصحاً ، فلا يقدم على أمره

إرادة ولا هوى ، ولا تقليداً ، ولا يساكن شبهة تعارض خبره، ولا شهوة تعارض أمره ، بل إذا مرّت به أنزلها منزلة الوساوس التي لئن يخر من السماء إلى الأرض أحب إليه من أن يجدها، فهذا كما قال النبى ﷺ : " صريح الإيمان[1] ، وكذلك يطمئن من قلق المعصية ، وانزعاجها إلى سكون التوبة وحلاوتها .

فإذا اطمأن من الشكّ إلى اليقين، ومن الجهل إلى العلم، ومن الغفلة إلى الذكر، ومن الخيانة إلى التوبة ومن الرياء إلى الإخلاص،ومن الكذب إلى الصدق، ومن العجز إلى الكيس ، ومن صولة العجب إلى ذلة الإخبات ، ومن التيه إلى التواضع، فعند ذلك تكون نفسه مطمئنة .

---

[1] () رواه مسلم (2/153) الإيمان ولفظه عن أبى هريرة قال : جاء ناس من أصحاب النبى ﷺ [illegible]

وأصل ذلك كله هى اليقظة ، الـتى كشـفت عن قلبه سِنة الغفلة وأضاءت له قصـور الجنـة ، فصاح قائلاً :

ألا يا نفس ويحك ساعدينى
بسعى منك فى ظلم الليالى

لعلك فى القيامة أن تفوزى
بطيب العيش فى تلك العلالى

فرأى فى ضوء هذه اليقظة ما خلق له، وما سيلقاه بين يديه من حين الموت إلـى دخـول دار القرار، ورأى سرعة انقضاء الدنيا ، وقلـة وفائهـا لبنيها وقتلها لعشاقها ، وفعلها بهم أنـواع المثلات ، فنهض فى ذلك الضوء على ساق عزمه قـائلاً : ﴿ **يَا حَسْرَتَى علَى مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ** ﴾ (الزمر : من الآية 56) .

فاستقبل بقيـة عمـره مسـتدركاً مـا فـات ، محييـاً مـا مـات ، مسـتقبلاً مـا تقـدم لـه مـن العثرات، منتهزاً فرصـة الإمكـان الـتى إن فـاتت فـاته جميـع الخيـرات، ثـم يلحـظ فـى نـور تلـك اليقظة وفور نعمة ربه عليه ، ويرى أنه آيسٌ من حصرها وإحصائها ، عاجزٌ عـن أداء حقهـا ، ويـرى فى تلك اليقظة عيـوب نفسـه ، وآفـات عملـه ، وما تقدم له مـن الجنايـات والإسـاءات والتقاعـد

عن كثير من الحقوق والواجبات ،فتنكسر نفسه وتخشع جوارجه ، ويسير إلى الله ناكس الرأس بين مشاهدة نعمه، ومطالعة جناياته ، وعيوب نفسه ، ويرى أيضاً فى ضوء تلك اليقظة عزة وقته ، وخطره ، وأنه رأس مال سعادته فيبخل به فيما لا يقربه إلى ربه ، فإن فى إضاعته الخسران والحسرة ، وفى حفظه الربح والسعادة .

فهذه آثار اليقظة وموجباتها ، وهى أول منازل النفس المطمئنة التى ينشأ منها سفرها إلى الله والدار الآخرة.

النفس اللوامة

قالت طائفة : هى التى لاتثبت على حال واحدة ، فهى كثيرة التقلب والتلون، فتذكر وتغفل ، وتقبل وتعرض ، وتحب وتبغض ، وتفرح وتحزن ، وترضى وتغضب ، وتطيع وتتقى .

وقالت أخرى : هى نفس المؤمن ، قال الحسن البصرى: إن المؤمن لا تراه إلا يلوم نفسه دائماً يقول : ما أردت هذا ؟ لم فعلت هذا ؟ كان هذا أولى من هذا ؟ أو نحو هذا الكلام .

وقالت أخرى : اللوم يوم القيامة ، فإن كـلّ أحد يلوم نفسـه إن كـان مسـيئاً على إسـاءته ، وإن كان محسناً على تقصيره .

يقول الإمام ابن القيّم : وهذا كله حق .
واللوامة نوعان : لوامـة ملومـة ، ولوامـة غير ملومة .

اللوامـة الملومـة : هـى النفـس الجاهلـة الظالمة ، التى يلومها الله وملائكته.

اللوامـة غيـر الملومـة : وهـى الـتى لاتـزال تلوم صاحبها على تقصيره فى طاعة اللـه - مـع بذله جهده – فهذه غير ملومة وأشـرف النفـوس من لامـت نفسـها فـى طاعـة اللـه، واحتملـت ملام اللوام فـى مرضـاته، فلا تأخـذها فـى اللـه لومة لائم ، فهذه قد تخلصت من لوم اللـه، وأمـا من رضيت بأعمالها ولم تلم نفسها، ولـم تحتمـل فى الله ملام اللوام ، فهى التى يلومها اللـه عـز وجلّ .

النفس الأمارة السوء :

وهذه النفس المذمومـة ، فإنهـا تـأمر بكـل سوء ،وهذا مـن طبيعتهـا ، فمـا تخلـص أحـد مـن

شرها إلا بتوفيق الله ، كما قال تعالى حاكياً عـن أمرأة العزيز:

﴿ **وَمَا أُبَرِّىءُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّيَ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ (يوسف : الآية 53) .

وقال عز وجل : ﴿ **ولولاَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا** ﴾ (النور : من الآية 21) .

وكان ﷺ يعلمهم خطبة الحاجة : " إن الحمد الله نحمده ، ونستعينه، ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا "[1] .

فالشر كامنٌ فى النفس ، وهو يوجب سيئات الأعمال ، فإذا خلى الله بين العبد وبين نفسه هلك بين شرها ، وما تقتضيه من سيئات الاعمال وإن وفقه الله وأعانه نجا من ذلك كله .

فنسأل الله العظيم أن يعيذنا من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا .

---

[1] () رواه أبو داود (2118) النكاح ، وقال الألبانى: صحيح، وانظر رسالته : خطبة الحاجة للألبانى .

وخلاصة القول : إن النفـس واحـدة تكـون: أمارة ، ثم لوامة ،ثم مطمئنة وهى غايـة كمالهـا وصلاحها.

والنفـس المطمئنـة قرينهـا الملـك، يليهـا، ويسـددها، ويقـذف فيهـا الحـق، ويرغبهـا فيـه ، ويريهـا حسـن صـورته ويزجرهـا عـن الباطـل ويزهدها فيه، ويريها قبح صـورته، وبالجملـة فمـا كان لله وبالله فهو مـن عنـد النفـس المطمئنـة، وأما النفـس الأمـارة فجعـل الشـيطان قرينهـا ، وصاحبها الذى يليها ،فهو يعدها ، ويمنيها، ويقذف فيهـا الباطـل ، ويأمرهـا السـوء ، ويزينهلهـا ، ويطيل فـى الأمـل ، ويريهـا الباطـل فـى صـورة تقبلها وتستحسنها.

فالنفس المنطمئنـة والملـك يقتضـيان مـن النفـس المطمئنـة : التوحيـد، والإحسـان والـبر والتقـوى ، والتوكـل والتوبـة ، والإنابـة والإقبـال على الله ، وقصر الأمل ، والإستعداد للموت ومـا بعده .

والشيطان وجنده من الكفرة يقتضيان مـن النفـس الأمـارة ضـد ذلـك وأصـعب شـىء علـى النغس المطمئنة تخليص الأعمال من الشـيطان

ومن الأمارة فلو وصل منها عمل واحد لنجا به العبد ، ولكن أبت الأمارة والشيطان أن يدعا له عملاً واحداً يصل إلى الله ،كما قال بعض العارفين بالله وبنفسه " والله لو أعلم أن لى عملاً واحداً وصل إلى الله لكنت أفرح بالموت من الغائب يقدم على أهله" ، وقال عبد الله بن عمر : " لو أعلم أن الله قبل منى سجدة واحدة لم يكن غائب أحب إلى من الموت ".

وقد انتصبت الأمارة فى مقابلة المطمئنة ، فكلما جاءت به تلك من خير ضاهتها هذه وجاءت من الشر بما يقابله حتى تفسده عليها، وتريه حقيقة الجهاد فى صور تقتيل النفس ، وتنكح الزوجة ، ويصير الأولاد يتامى ويقسم المال وتريه حقيقة الزكاة والصدقة فى صورة مفارقة المال ونقصه، وخلو اليد منه ، واحتياجه إلى الناس ، ومساواته للفقير .

محاسبة النفس

علامة استيلاء النفس الأمارة بالسوء على قلب المؤمن محاسبتها والتضييق عليها وسؤالها عن كل قول وعمل .

قال الحسن : " المؤمن قوام على نفسه ، يحاسب نفسه لله ، وإنما خف الحساب يوم القيامة لى قوم حاسبوا أنفسهم فى الدنيا ، وإنما شق الحساب يوم القيامة على قوم أخذوا هذا الأمر على غير محاسبة " .

إن المؤمن يفاجئه الشىء ويعجبه فيقول : والله إنى لأشتهيك ، وإنك لمن حاجتى ، ولكن والله ما من حيلة إليك ، هيهات حيل بينى وبينك ويفرط منه الشىء فيرجع إلى نفسه فيقول : ما أردت إلى هذا ؟ ! ما لى ولهذا ؟ والله لا أعود إلى هذا أبداً . إن المؤمنين قوم أوقفهم القرآن وحال بين هلكتهم ، إن المؤمن أسير فى الدنيا يسعى فى فكاك رقبته ، لا يأمن شيئاً حتى يلقى الله ، يعلم أنه مأخوذ عليه فى سمعه، وفى بصره ، وفى لسانه ، وفى جوارحه ، مأخوذ عليه فى ذلك كله .

قال مالك بن دينار: " رحم الله عبداً قال لنفسه : ألست صاحبة كـذا؟ ألسـت صـاحبة كـذا؟ ثـم ذمها ، ثم خطمها ، ثم ألزمها كتاب الله عز وجل، فكان لها قائداً " .

فحق على الحازم المؤمن بالله وباليوم الآخر أن لايغفل عن محاسبة نفسه، والتضييق عليها فـى حركاتها وسكناتها ، وخطراتهـا، فكـل نفـس مـن انفاس العمر جوهرة نفيسة ، يمكـن أن يشـترى بها كنزاً من الكنـوز لا يتنـاهى نعيمـه أبـد الآبـاد ، فإضاعة هـذه الأنفـاس ، أو اشـتراء صـاحبها بهـا مما يجلب هلاكه خسران عظيـم لا يسـمح بمثلـه إلا أجهل النـاس وأحمقهـم وأقلهـم عقلاً ، وإنمـا يظهر له حقيقة هذا الخسران يوم التغابن ، قـال تعالى: ﴿ **يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّـا عَمِلَـتْ مِـنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوَءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَـدًا بَعِيـدًا** ﴾ (آل عمـران : مـن الآية 30) .

ومحاسبة النفس نوعان : نوع من قبل العلم ونوع بعده :

أما النوع الأول : فهـو أن يقـف عنـد أول همّه وإرادتـه ، ولا يبـادر بالعمـل حـتى يتـبين لـه رجحانهُ على تركه .

قال الحسن رحمه الله : " رحم الله عبـداً وقـف عند همه، فإن كان لله أمضـاه ، وإن كـان لغيـره تأخر "

وشــرح بعضــهم هــذا فقــال : إذا تحركــت النفس لعمل من الأعمال، وهمّ بـه العبـد، وقـف أولاً ونظر : هل ذلك العلم مقـدور عليـه، أو غيـر مقدور ، ولا مستطاع ، فإن لـم يكـن مقـدور لـم يقدم عليه، وإن كان مقـدوراً عليـه وقـف وقفـة أخرى ، ونظر : هل فعلـهُ خيـر لـه مـن تركـه، أم تركه خير له من فعله، فإن كان الثانى تركه ولـم يقدم عليـه ، وإن كـان الأول وقـف وقفـة ثالثـة : هل الباعث عليه إرادة وجه الله عز وجـل وثـوابه ،أم إرادة الجـاه والثنـاء والمـال مـن المخلـوق ، فإن كان الثـانى لـم يقـدم ، وإن أفضـى بـه إلـى مطلوبه ، لئلا تعتاد النفس الشرك ، ويخف عليها العمل لغير الله ، فبقرد ما يخف عليها ذلك يثقـل عليها العمل لله تعـالى حـتى يصـير أثقـل شـىء عليها ، وإن كان الأول وقف وقفة أخـرى: ونظـر هــل هــو معــان عليــه ولــه أعــوان يســاعدونه وينصرونه إذا كان العمل محتاج إلى ذلــك أم لا ؟

فإن لم يكن له أعـوان أمسـك عنـه كمـا أمسـك النبى عن الجهـاد بمكـة حـتى صـار لـه شـوكة وأنصار ، وإن وجده معاناً عليه فليقدم عليه فـإنه منصور بإذن الله ، ولا يفوت النجاح إلا من فــوت خصلة من هـذه الخصـال ، وإلا فمـع اجتماعهـا لا يفوته النجاح ، فهذه أربعة مقامـات يحتـاج العبـد إلى محاسبة نفسه عليها قبل العمل .

والنــوع الثــانى: محاســبة النفــس بعــد العمل وهو ثلاثة أنواع :

أحدها : محاسبتها على طاعة قصرت فيها من حق الله تعالى، فلم توقعها على الوجه الذى ينبغى وحق الله فـى الطاعـة سـتةأمور هـى : : الإخلاص فى العمل ، والنصيحة لله فيه ، ومتابعة الرسول ، وشهود مشهد الإحسان ، وشهود منة الله عليه ، وشهود تقصيره فيـه بعـد ذلـك كلـه ، فيحاسب نفسه هل وفى هذه المقامات حقهــا ؟ وهل اتى بها فى هذه الطاعة ؟ .

الثانى : أن يحاسب نفسه على كل عمـل كان تركه خيراً له من فعله.

الثالث : أن يحاسب نفسه على أمـر مبـاح لم فعله، وهل أراد به الله تعـالى والـدار الآخـرة فيكون رابحاً ، أو أراد به الدنيا وعاجلها ، فيخسـر ذلك الربح ويفوته الظفر به .

وآخر مـا عليـه الإهمـال، وتـرك المحاسـبة، والاسترسال ، وتسـهيل الأمـور وتمشـيتها ، فـإن هذا يؤول به إلى الهلاك، وهذه حال أهل الغـرور، يغمض الواحد عينيه عـن العـواقب ويتكـل علـى العفـو ، فيهمـل محاسـبة نفسـه والنظـر فـى العاقبـة ، وإذا فعـل ذلـك سـهل عليـه مواقعـة الذنوب وأنس بها وعسر عليه فطامها.

وجمـاعُ ذلـك أن يحاسـب نفسـه أولاً علـى الفرائض فإن تذكر فيها نقصاً تداركه إمـا بقضـاء أو إصلاح، ثم يحاسبها على المنـاهى فـإن عـرف أنه ارتكب منها شيئاً تداركه بالتوبة والاسـتغفار ، والحسـنات الماحيـة ثـم يحاسـب نفسـه علـى الغفلة، فإن كان قد غفـل عمـا خُلـق لـه تـداركه بالذكر والإقبال على الله تعالى، ثم يحاسـبها بمـا تكلم به، أو مشت به رجلاه ، أو بطشت يـداه، أو سـمعته أذنـاه، مـاذا أردت بهـذا ، ولـم فعلتُـه ؟ ولمن فعلته، وعلى أى وجه فعلته، ويعلم أنه لابد أن ينشر لكل حركة وكلمة ديوانان : لمـن فعلتـه ؟ وكيف فعلتَه ؟ فالأول : سـؤال عـن الإخلاص ، والثانى : سؤال عن المتابعة ، قال الله تعالى : **لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ** (الأحزاب : من الآية 8) .

فإذا سئُل الصادقون عن صدقهم، وحوسبوا على صدقهم ، فما الظن بالكاذبين .

فوائد محاسبة النفس

1 – الاطلاع على عيوب نفسه : ومن لم يطلع على عيوب نفسه لم يمكنه إزالتها ، قال يونس بن عبيد: " إنى لأجد مائة خصلة من خصال الخير ما أعلم أن فى نفسى منها واحدة " .

وقال محمد بن واسع : لو كان للذنوب ريحٌ ما قدر أحد أن يجلس إلىّ .

وعن أبى الدرداء قال: " لا يفقه الرجل كل الفقه حتى يمقت الناس فى جنب الله ، ثم يرجع إلى نفسه فيكون أشد لها مقتاً " .

3- أن يعرف حق الله تعالى عليه، فإن ذلك يورثه مقت نفسه ، والإزراء عليها ويخلصه من العجب ورؤية العمل ، ويفتح له باب الخضوع والذل والإنكسار بين يدى ربه ، واليأس من نفسه ، وأن النجاة لا تحصل له إلا بعفو الله ومغفرته ورحمته ، فإن من حقه أن يطاع فلا يعصى وأن يذكر فلا يُنسى وأن يُشكر فلا يُكفر .

8 - الصبر والشكر

فلمـا كـان الإيمـان نصـفين فنصـف صـبر ونصف شكر، كان حقيقاً علـى مـن نصـح نفسـه وأحـب نجاتهـا وآثـر سـعادتنها أن لايهمـل هـذين الأصلين العظيمين، وأن يجعل سيره إلى الله عز وجل فـى هـذين الطريقيـن القاصـدين ، ليجعلـه الله يوم القيامة مع خير الفريقين .

أ - الصبر

فضائله :

أن الله سبحانه جعل الصبر جـواداً لايكبـو ، وصـارماً لاينبـو ، وجنـداً غالبـاً لايهـزم ، وحصـناً حصيناً لايهدم، فهو والنصر أخوان شقيقان ، وقد مدح الله عز وجل فى كتابه الصابرين ، وأخبر أنه يؤتيهم أجرهـم بغيـر حسـاب ، وأخـبر أنـه معهـم بهدايته ونصـره العزيـز، وفتحـه المـبين ، فقـال تعـالى : **وَاصْبِرُواْ إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ** (الأنفال : من الآية 46)

فظفر الصابرون بهـذه المعيـة بخيـر الـدنيا والآخرة، ففازوا بهـا ينعمـه الباطنـة والظـاهرة ، وجعل سبحانه الإمامة فى الدين منوطـة بالصـبر واليقين فقال تعالى – وبقـوله اهتـدى المهتـدون

: : **وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ** (السجدة : الآية 24)

وأخبر تعالى أن الصبر خيرٌ لأهله مؤكداً باليمين ، فقال تعالى : **وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ** (النحل : من الآية 126)

وأخبر أن مع الصبر والتقوى لا يضر كيدُ العدو ولو كان ذا تسليط ، فقال تعالى : **وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لاَ يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ** (آل عمران : من الآية 120)

وعلق الفلاح بالصبر والتقوى، فقال تعالى : **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَاتَّقُواْ اللّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** (آل عمران : الآية 200)

وأخبر عن محبته لأهله ، وفى ذلك أعظم ترغيب للراغبين، فقال تعالى : **وَاللّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ** (آل عمران : من الآية 146)

وبشّر الصابرين بثلاث كل منها خير مما عليه أهل الدنيا يتحاسدون : فقال تعالى : **وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم**

مُّصِيبَةٌ قَالُواْ إِنَّـا لِلّـهِ وَإِنَّـا إِلَيْـهِ رَاجِعـونَ أُولَـئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّـن رَّبِّهِـمْ وَرَحْمَـةٌ وَأُولَـئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿ (البقرة : من الآية 155 والآية 156، 157)

وجعـل الفـوز بالجنـة ، والنجـاة مـن النـار، لايحظى بـه إلا الصـابرون، فقـال عـز وجـلّ : ﴿ **إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَـا صَـبَرُوا أَنَّهُـمْ هُـمُ الْفَائِزُونَ** ﴾ (المؤمنون : الآية 111)

وخص في الانتفاع بآياته أهل الصبر ، وأهـل الشكر ، تمييزاً لهم بهذا الحـظ الموفـور ، فقـال فى أربع آيات مـن كتـابه جـل وعلا : ﴿ **إِنَّ فِـي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ** ﴾ (من الآيـات : إبراهيم : 5 ، لقمان 31 ، سبأ 19 ، الشورى 33)

والصبر آخية المؤمن التى يجـول ثـم يرجـع إليها ، وساقُ إيمانه التى لا اعتماد لـه إلا عليهـا ، فلا إيمان لمن لا صبر له، وإن كان فإيمـان قليـل فى غاية الضعف ، وصاحبه ممن يعبد اللـه علـى حرف ، فإن أصابه خيـر اطمـأن بـه، وإن أصـابته فتنةٌ انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ، ولم يحظ منهـا إلا بالصـفقة الخاسـرة ، فخيـر عيـش أدركـه السـعداء بصـبرهم، وترقـوا إلـى أعلـى

المنـازل بشـكرهم فسـاروا بيـن جنـاحى الصـبر والشـكر إلـى جنـات النعيـم ، لقـوله تعـالى : **ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُ ؤْتِيهِ مَـن يَشَـاء وَاللَّـهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ** (الحديد : من الآية 21)

معنى الصبر وحقيقتة

الصبر لغة : هو المنـع والحبـس ، وشـرعاً فهـو حبـس النفـس عـن الجـزع واللسـان عـن التشـكى، والجـوارح عـن لطـم الخـدود وشـق الجيوب، ونحوهما .

وقيل : هو خلـق فاضـل مـن أخلاق النفـس يمتنع به من فعل مـا لا يحسـن ولا يجمـل ، وهـو قـوة مـن قـوى النفـس الـتى بهـا صـلاح شـأنها وقوام أمرها .
سئل عنه الجنيـد فقـال : " تجـرع المـرارة من غير تعبس " .

وقال ذو النون المصرى: " هو التباعـد عـن المخالفات ، والسكون عند تجرع غُصـص البليـة، وإظهـار الغنـى مـع الحلـول الفقـر بسـاحات المعيشة ".

وقيـل : " الصـبر هـو الوقـوف مـع البلاء بحسن الأدب " .

وقيل : " هـو الغنـى فـى البلـوى بلا ظهـور شكوى " .

ورأى أحد الصالحين رجلاً يشتكي إلى أخيـه فقال له : ياهذا ، والله ما زدت علـى أن شـكوت من يرحمك إلى من لا يرحمك .

وقيل فى ذلك :

وإذا شكوت إلى ابن آدم إنما تشكى الرحيم إلى الذى لايرحمُ

والشكوى نوعان: شكوى إلى اللـه عـز وجل وهذه لا تنافى الصبر ، كقول يعقوب : **إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ** (يوسف : من الآية 86) مع قوله : **فَصَـبْرٌجَمِيلٌ** (يوسف : من الآية 83)

والنوع الثانى : شـكوى المبتلـى بلسـان الحال أوالمقال، فهذه لاتجامع الصبر بـل تضـاده وتبطله .

وساحة العافية أوسع للعبد من ساحة الصبر ، ولا يناقض هذا قوله : وم ا أعطا أحد عطاءاً خيراً وأوسع من الصبر " ، فإن هذا بعد نزول البلاء فساحة الصبر أوسع الساحات ، أما قبل نزوله فساحة العافية أوسع .

والنفس مطية العبد التى يسير عليها إلى الجنة أو النار، والصبر لها بمنزلة الخطام والزمام للمطية ، فإن لم يكن للمطية خطام ولا زمام شردت فى كل مذهب ، وحفظ من خطب الحجاج: " إقدعوا هذه النفوس فإنها طلعة إلى كل سوءٍ ، فرحم الله امرءاً جعل لنفسه خطاماً وزماماً فقادها بخاطمها إلى طاعة الله ، وصرفها بزمامها عن معاصى الله، فإن الصبر عن محارم الله أيسر من الصبر على عذابه .

والنفس لها قوتان: قوة الإقدام وقوة الإحجام ، .. فحقيقة الصبر أن يجعل قوة الإقدام مصروفة إلى ما ينفعه، وقوة الإحجام إمساكا عما يضره ، ومن الناس من يصبر على قيام الليل ومشقة الصيام ، ولا يصبر على نظرة محرمة ، ومنهم من يصبر على النظر والإلتفات إلى الصور ، ولا صبر له على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والجهاد .

وقيل : الصبر شجاعة النفس ، ومن ها هنـا أخذ القائـل قـوله : " الشـجاعة صـبر سـاعة " ، والصبر والجزع ضدان ، كما أخبر سبحانه وتعالى عـن أهـل النـار: **سَـوَاء عَلَيْنَـآ أَجَزِعْنَـا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِـن مَّحِيـصٍ** (إبراهيم : مـن الآية 21)

أقسام الصبر باعتبار متعلقه

والصبر باعتبار متعلقة ثلاثـة أقسـام : صـبر على الأوامر والطاعات حتى يؤديها ، وصـبر عـن المناهى والمخالفات حتى لا يقع فيها، وصبرعلى الأقضية حـتى لايتسـخطها، وهـذه الأقسـام هـى التى قيل فيها :

" لابد للعبد من أمر يفعلـه ، ونهـى يجتنبـه، وقدر يصبر عليه ".

والصبر أيضاً نوعان : اختيارى واضطرارى ، والاختيـارى أكمـل مـن الاضـطرارى ، فـإن الاضطرارى يشترك فيـه النـاس ويتـأنى ممـن لا يتـأتى منـه الصـبر الاختيـارى ولـذلك كـان صـبر يوسف عن مطاوعة امرأة العزيز أعظم مـن صبره على ما ناله من إخوته لما ألقوه فى الجب .

فالإنسان لا يستغني عن الصبر فى حال من الأحوال لأنه يتقلب بين أمـر يجـب عليـه امتثـاله وتنفيذه ، ونهى يجب عليه اجتنـابه وتركـه، وقـدر يجرى عليه اتفاقا ،ونعمة يجب شكر المنعـم بهـا عليه وإذا كانت هذه الأحوال لا تفـارقه ، فالصـبر لازم له إلى الممات .

وكل ما يلقى العبد فى هذه الدار لايخلو من نوعين :

أحدهما : يوافق هواه ومراده .

والآخر : يخالفه ،وهـو محتـاج إلـى الصـبر فـى كـل منهمـا ، أمـا النـوع الموافـق لغرضـه كالصحة ،والجاه ، والمال ، فهو أحوج شىء إلـى الصبر فيها من وجوه :

أحدهما : أن لايركـن إليهـا ، ولا يغـتر بهـا ، ولا تحمله على البطـر ، والفـرح المـذموم الـذى لايحب الله أهله .

والثانى : أن لا ينهمك فى نيلها .

والثالث : أن يصبر على أداء حق الله فيها .

والرابع: أن يصبر عن صرفها من الحـرام، قال بعض السلف : " البلاء يصـبر عليـه المـؤمن والكافر، ولا يصبر على العافية إلا الصديقون ".

وقــال عبــد الرحمــن بــن عــوف : ابتلينــا بالضراء فصبرنا ، وابتلينا بالسراء فلـم نصـبر !!، ولذلك يحذر الله عباده من فتنة المـال ،والأزواج والأولاد . فقال تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُــوا لا تُلْهِكُـمْ أَمْـوَالُكُمْ وَلا أَوْلَادُكُـمْ عَـن ذِكْـرِ اللَّهِ** ﴾ (المنافقون : من الآية 9)

أما النوع الثانى المخالف للهوى : فلا يخلـو إمـا أن يرتبـط باختيـار العبـد كالطاعـات والمعاصى، أو لا يرتبط أوله باختياره كالمصـائب ، أو يرتبط أوله باختياره ولكن لا اختيـار لـه فـى إزالته بعد الدخول فيه.

فها هنا ثلاثة أقسام :

القسم الأول :

ما يرتبط باختياره ، وهو جميع أفعاله التى توصف بكونها طاعة أو معصية فأما الطاعة فالعبد محتاج إلى الصبر عليها لأن النفس بطبعها تنفر عن كثير من العبودية، أما فى الصلاة فلما فيها من الكسل وإيثار لراحة لا سيما إذ اتفق مع ذلك قسوة القلب، ورين الذنب والميل إلى الشهوات ، ومخالطة أهل الغفلة .

وأما الزكاة فلما فى طبع النفس من الشح والبخل ، وكذلك الحج، والجهاد للأمرين جميعاً ، ويحتاج العبد إلى الصبر فى ثلاثة أحوال: قبل الشروع فى الطاعة ، وذلك بتصحيح النية ، والإخلاص فى الطاعة ، وحين الشروع فى الطاعة ، وذلك بالصبر على دواعى التقصير والتفريط ، واستصحاب النية ولا يعطله قيام الجوارح بالعبودية عن حضور قلبه بين يديه سبحانه .

والثالثة بعد الفراغ من الطاعة ، وذلك بالصبر على ما يبطلها ، فليس الشأن فى الإتيان بالطاعة ، وإنما الشأن فى حفظها مما يبطلها، فيصبر عن رؤيتها والعجب بها والتكبر، وكذلك يصبر عن نقلها من ديوان السر إلى ديوان العلانية ، فإن العبد يعمل العمل سراً بينه وبين الله سبحانه، فيكتب فى ديوان السر ، فإن

تحـدث بـه نقـل مـن ديـوان السـر إلـى ديـوان العلانيــة، فلا يظــن أن بســاط الصــبر انطــوى بالفراغ من العمل.

أمـا الصـبر عـن المعاصـى فـأمره ظـاهر ، وأعظم ما يعين عليه قطع المألوفات ، ومفارقـة الأعوان عليه فى المجالسة والمحادثة .

القسم الثانى :

مالا يدخل تحت الإختيار، وليس للعبـد حيلـة فى دفعه كالمصائب، وهـى إمـا أن تكـون ممـا لا صنع لآدمى فيه كـالموت والمـرض والثـانى: مـا أصابه من جهة آدمى كالسب والضرب .

فالنوع **الأول**: للعبد فيـه أربعـة مقامـات : مقام العجز ، وهو الجـزع والشـكوى , والثـانى : مقام الصبر ، والثالث : مقام الرضـى، والرابـع : مقام الشكر وهو بأن يشهد البليـة نعمـة فيشـكر المبتلى عليها .

وما أصابه مـن جهـة النـاس فلـه فيـه هـذه المقامات مضافاً إليها أربعة أخـر: الأول : مقـام العفو ، و**الثانى**: مقام سلامة الصـدر مـن إرادة التشفى، **الثالث**: مقام القـدر ، والرابـع : مقـام الإحسان إلى المسىء .

القسم الثالث

مما يكون وروده باختيـاره ، فـإذا تمكـن منـه لـم يكن له اختيار، ولا حيلة فى دفعه .

الأخبار الواردة فى فضيلة الصبر

عن أم سلمة قالت : سمعت رسول الله يقـول : " ما من مسلم تصيبه مصيبة فيقـول مـا أمـره الله (إنا لله وإنا إليه راجعون اللهـم أجرنـى فـى مصيبتي واخلف لى خيراً منها) ، إلا أخلـف اللـه له خيراً منها، قالت: فلما مات أبوسـلمة قلـت : أى المسـلمين خيـرٌ مـن أبـى سـلمة ، أول بيـت هاجر إليه رسول الله ثم إنى قلتها فأخلف اللـه لى رسول الله ... " . الحديث[1] .

وعن أبى هريرة أن رسول اللـه قـال : " مـن يرد الله به خيراً يصب منه "[2] .

---

1 () رواه مسلم (6/220، 221) الجنائز، ومالك فى الموطأ (1/236) الجنـائز ، وأبـو داود (3309) الجنـائز بمعنـاه ، وابـن مـاجه (1598) الجنائز .

2 () رواه البخـارى (10 /ـ 103) المرضـى، ومالـك فـى الموطـأ (2/941) العين .

وعن عائشة رضى الله عنها قـالت :قـال رسـول الله : " ما من مصـيبة تصـيب المـؤمن إلا كفّـر الله بها عنه حتى الشوكة يشاكها "[1] .

وعن أبى موسى قال : قال رسول الله : " إذ مرض العبد أو سافر كتب له مثل ما كـان يعمـل مقيماً صحيحاً " [2].

عن خباب بـن الأرت قـال : شـكونا إلـى رسـول الله - وهو متوسد ببردة له فـى ظـل الكعبـة – فقلنا : ألا تستنصر لنا ، ألا تدعو لنا ، فقال : " قد كان مـن قبلكـم يؤخـذ الرجـل ، فيحفـر لـه فـى الأرض ، فيجعـل فيهـا فيجـاء بالمنشـار فيوضـع على رأسه فيجعـل نصـفين ، ويمشـط بأمشـاط الحديد من دون لحمه ، وعظمه ،مـا يصـده ذلـك عن دينه، والله ليتمن الله هذا الأمـر حـتى يسـير الراكب من صـنعاء إلـى حضـرموت لا يخـاف إلا الله والذئب على غنمه ، ولكنكم تستعجلون " [3] .

الآثار : قال بعض السلف : لـولا مصـائب الـدنيا لوردنا الآخرة من المفاليس " .

---

[1] () رواه البخارى (10 / 103) المرضى، ومسلم (16/129) البر والصلة .

[2] () رواه البخارى (6 / 136) الجهاد، وأبو داود (3075) الجنائز .

[3] () رواه البخارى (7 / 202) مناقب الأنصار .

قـال سـفيان بـن عيينـة فـى قـوله تعـالى : ﴿ **وَجَعَلْنَـا مِنْهُـمْ أَئِمَّـةً يَهْـدُونَ بِأَمْرِنَـا لَمَّـا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ** ﴾ (السجدة : من الآية 24)

لما أخذوا بـرأس الأمـر جعلنـاهم رؤوسـاً ، ولمـا أرادوا قطع رجل عروة ابن الزبير قـالوا لـه : لـو سـقيناك شـيئاً كيلا تشـعر بـالوجع، قـال : إنمـا ابتلانى ليرى صبرى أفأعارض أمره ؟!

قال عمر بن عبد العزيز: " ما أنعم الله على عبد نعمة فانتزعها منه فعاضه مكانها الصـبر إلا كـان ما عوضه خيراً مما انتزعه .

ومرض أبو بكر الصديق فعادوه فقالوا: ألا نـدعو لك الطبيب، فقـال " قـد رآنـى الطـبيب، قـالوا : فأي شيء قال لك ؟ فقال : قـال : " إنـى فعـال ما أريد " .

ورُوى أن سعيد بن جبير قال: " الصبر : اعتراف العبد لله بمـا أصـابه منـه واحتسـابه عنـد اللـه ، ورجاء ثوابه ، وقد يجزع العبد وهو يتجلـد لا يـرى منه إلا الصبر " .

فقوله: اعتراف العبد لله بما أصابه كأنه تفسير لقوله : ﴿ **إِنَّا لِلَّهِ** ﴾ (البقرة : من الآية 156) . فيعترف أنه ملك لله يتصرف فيه مالكه بما يريد، وراحياً بهما عند الله كأنه تفسير لقوله : ﴿ **وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعونَ** ﴾ (البقرة : من الآيــة 156) . أى نـرد إليـه فيجزينـا علـى صـبرنا ، ولا يضـيع أجـر المصيبة .

ب - الشكر

الشكر : هو الثناء على المنعـم بمـا أولاكـه مـن معروف .

وشـكر العبـد يـدور علـى ثلاثـة أركـان – لايكـون شكراً إلا بمجموعهما – وهى : الاعتراف بالنعمة باطناً ، والتحدث بها ظاهراً والاستعانة بها على طاعة الله ، فالشـكر يتعلـق بـالقلب واللسـان ، والجـوارح ، لاسـتعمالها فـى طاعـة المشـكور وكفها عن معاصيه .

وقد قرن الله سبحانه وتعـالى الشـكر بالإيمـان، وأخبر أنه لا غرض له فى عذاب خلقه إن شكروا وآمنوا بهـه ، فقـال تعـالى : ﴿ **مَّا يَفْعَـلُ اللَّـهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ** ﴾ (النساء : مـن الآية 147)

وأخبر سبحانه عن أهل الشكر هم المخصوصون بمنته عليهم من بين عبادة فقال عز وجل : ﴿ **وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُواْ أَهَؤُلاء مَنَّ اللّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ** ﴾ (الأنعام : الآية 53)

وقسم الناس إلى شكور وكفور ، فأبغض الأشياء إليه الكفر وأهله ، وأحب الأشياء إليه الشكر وأهله ، قال تعالى : ﴿ **إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا** ﴾ (الإنسان : الآية 3)

وقال تعالى : ﴿ **وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ** ﴾ (إبراهيم : الآية 7)

فعلق سبحانه المزيد بالشكر ، والمزيد منه لا نهاية له كما لا نهاية لشكره ، وقد وقف الله سبحانه كثيراً من الجزاء على المشيئة .

كقوله تعالى: ﴿ **فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاء** ﴾ (التوبة : من الآية 28)

وقال فى المغفرة: ﴿ **وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاء** ﴾ (المائدة : من الآية 40)

وقال فـى التوبـة: ﴿ **وَيَتُوبُ اللّـهُ عَلَـى مَـن يَشَاء** ﴾ (التوبة : من الآية 15)

وأطلق جزاء الشكر إطلاقـاً حيـث ذكـره كقـوله تـبارك وتعـالـى : ﴿ **وَسَـنَجْزِي الشَّـاكِرِينَ** ﴾ (آل عمران : من الآية 145)
ولما عرف عدو الله إبليس قـدر مقـام الشـكر ، وأنه من أجل المقامات وأعلاها ، يجعل غـايته أن يسـعى فـى قطـع النـاس عنـه ، فقـال : ﴿ **ثُـمَّ لآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلاَ تَجِـدُ أَكْثَرَهُـمْ شَاكِرِينَ** ﴾ (الأعراف : من الآية 17)
ووصف سبحانه الشاكرين بأنهم قليل من عبـاده فقال تعالى : ﴿ **وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّـكُورُ** ﴾ (سبأ : من الآية 13)

وثبت فى الصحيحين عن النبى ﷺ : أنه قام حـتى تفطرت قدماه فقيل له : أتفعـل هـذا وقـد غفـر الله لك ما تقدم مـن ذنبـك ومـا تـأخر ؟ قـال : " أفلا أكون عبداً شكوراً " [1] .

---

[1] () رواه البخارى (3 / 41) التهجد . ومسلم (17/162) صفات المنافقين ، والترمذى (2/204، 205) ، والنسائى (3/219) قيـام الليل .

وعنه قال: " ان الله ليرضى عن العبد يأكل الأكلة فيحمده عليها ويشرب الشربة فيحمده عليها " [2] .

فكان هذا الجزاء العظيم الذى هو أكبر أنواع الجزاء كما قال تعالى : **وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ** (التوبة : من الآية 72) .

فى مقابلة شكره بالحمد والشكر قيد النعم وسبب المزيد ، قال عمر ابن عبد العزيز: " قيدوا نعم الله بشكر الله" وذكر ابن أبى الدنيا عن علىّ بن أبى طالب أنه قال لرجل من همذان : " أن النعمة موصولة بالشكر والشكر يتعلق بالمزيد ،وهما مقرونان فى قرن ، فلن ينقطع المزيد من الله حتى ينقطع الشكر من العبد " .

وقال الحسن: أكثروا من ذكر هذه النعم، فإن ذكرها شكر، وقد أمر الله نبيه أن يحدث بنعمة ربه فقال : **وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ** (الضحى : الآية 11) .

---

[2] () رواه مسلم (17/51) الذكر والدعاء ، والترمذى (8/9) الأطعمة .

والله تعالى يحب أن يرى أثرُ نعمته علـى عبـده ، فإن ذلك شكرها بلسان الحال.

وكان أبو المغيرة إذا قيل له: كيف أصبحت يا أبـا محمـد ؟ قـال : " أصـبحنا مغرقيـن فـى النعـم، عاجزين عن الشكر، يتحبب إلينـا ربنـا وهـو غنـىٌ عنا ، ونتمقت إليه ونحن إليه محتاجون " .

وقال شريح: " ما أصيب عبدٌ بمصيبة إلا كان لله عليه فيها ثلاث نعم : ألا تكون كـانت فـى دينـه ، وألا تكون أعظم مما كانت، وأنها لابد كائنـة فقـد كانت ".

وقال يونس بن عبيـد: قـال رجـل لأبـى تميمـة ، كيف أصبحت ؟ قال : " أصـبحت بيـن نعمـتين لا أدرى أيتها أفضـل : ذنـوب سـترها اللـه علـىّ فلا يستطيع أن يعيرنى بها أحد ، ومـودة قـذفها اللـه فى قلوب العباد لا يبلغه،ا عملى " .

وعـن سـفيان فـى قـوله تبـارك وتعـالى: **سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ** (القلم : من الآية 44) .

قال: يسبغ عليهم النعم ويمنعهم الشـكر ، وقـال غير واحد،: " كلما أحدثوا ذنبـا أحـدث لهم نعمـة " .

قال رجل لآبى حازم: ما شكر العينين يا أبا حازم ؟ فقال: إنى رأيت بهما خيراً أعلنتـه، وإن رأيـت بها شراً سترته.

قال فما شـكر الأذنيـن؟ قـال : إن سـمعت بهما خيراً وعيته، وإن سمعت بهما شراً دفعته.

قال : فما شكر اليدين ؟ قـال لا تأخـذ بهمـا ما ليس لهما ، ولا تمنع حقاً لله هو فيهما .

قال : فما شكر البطـن ؟ أن يكـون أسـفله طعاما وأعلاه علماً .

قال : فما شكر الفرج : قال تعـالى : **وَالَّـذِينَ هُـــمْ لِفُرُوجِهِـــمْ حَـــافِظُونَ إِلا عَلَـــى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْـرُ مَلُومِينَ فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاء ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْعَادُون** (المؤمنون : الآية 5 – 7) .

قال : فما شكر الرجلين ؟ قال : إن علمت ميتـاً تغبطه اسـتعملت بهمـا عملـه، وإن مقتـه رغبـت عن عمله وأنت شاكرالله .

وأما من شكر بلسانه ، ولم يشكر بجميع أعضائه ، فمثله كمثل رجل له كسـاء فأخـذ بطرفـه ولـم يلبسه ، فما ينفعه ذلك من الحر، والبرد ، والثلج، والمطر .

وكتب بعض العلماء إلى أخ له: أما بعد فقد أصبح بنا من نعم الله مالا نحصيه من كثرة مـا نعصـيه، فما ندرى أيهما نشكر، أجميل ما يَسّـر ، أم قبيـح ما ستر ؟ ! .

9 - التوكل :

التوكل: هو صدق اعتمـاد القلـب علـى اللـه عـز وجل فى استجلاب المصـالح ودفـع المضـار فـى أمور الدنيا والآخرة .

قال الله عز وجل : **وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّـهُ مَخْرَجًـا وَيَرْزُقْـهُ مِـنْ حَيْـثُ لا يَحْتَسِـبُ** (الطلاق : من الآية 2 ، 3) .

فمن حقق التقوى والتوكـل ، اكتفـى بـذلك فى مصالح دينه ودنياه.

وعن عمر بن الخطاب عن النبى قـال : " لـو أنكم كنتم تتوكلون على الله حق تـوكله لرزقكـم كما ترزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطانـاً "[1]. – حسن صحيح - .

قال أبو حـاتم الـرازى: هـذا الحـديث أصـل فـى التوكل وأنه من أعظم الأسـباب الـتى يسـتجلب بها الرزق .

وقال سعيد ابن جبير: " التوكل جماع الإيمـان" ، وتحقيق التوكـل لا ينـافى الأخـذ بالأسـباب الـتى قدر الله سبحانه وتعالى المقدرات بهـا، وجـرت سـنته فـى خلقـه بـذلك ، فـإن اللـه تعـالى أمـر بتعاطى الأسباب، مـع أمـره بالتوكـل ، فالسـعى فـى الأسـباب بـالجوارح طاعـة للـه، والتوكـل بالقلب عليه إيمان بـه ، قـال تعـالى : **يَا أَيُّهَـا الَّذِينَ آمَنُواْ خُذُواْ حِـذْرَكُمْ** (النسـاء : مـن الآية 71) .

---

[1] () رواه الترمذى (10/208) الزهد، وقال صحيح لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وابن ماجه (64 ، 41)، والحاكم (4/318) الرقاق، وقـال صحيح ولم يخرجاه، وصححه الألبانى .

قال سهل: " من طعن فى الحركة يعنى فى السعى والكسب فقد طعن فى السنة ، من طعن فى التوكل فقد طعن فى الإيمان"، فالتوكل حال النبى والكسبُ سنته فمن عمل على حاله فلا يتركن سننه .

وقيل: " عدم الأخذ بالأسباب طعن فى التشريع، والاعتقاد فى الأسباب طعن فى التوحيد " .

والأعمال التى يعملها العبد ثلاثة أقسام :

القسم الأول: الطاعات التى أمر الله بها عباده، وجعلها سبباً للنجاة من النار ودخول الجنة، فهذا لابد من فعله، مع التوكل على الله عز وجل فيه، والاستعانة به عليه، فإنه لاحول ولا قوة إلا به، وما شاء سبحانه كان ومالم يشأ لم يكن ، فمن قصّر فى شىء مما وجب عليه من ذلك إستحق العقوبة فى الدنيا والآخرة شرعاً وقدراً .

قال يوسف بن أسباط: " قال اعملْ عملَ رجل لاينجيه إلا عَمَلُه، وتوكل توكل رجل لايصيبه إلا ما كُتب له " .

القسم الثانى: ما أجـرى اللـه العـادة بـه فـى الدنيا وأمر عبـاده بتعـاطيه كالأكـل عنـد الجـوع، والشرب عند العطـش، والإسـتظلال مـن الحـر، والتدفؤ من البرد ، ونحو ذلك ، فهذا أيضاً واجـب على المرء تعاطى أسبابه ومن قصّـر فيـه حـتى تضرر بتركه – مع القدرة علـى اسـتعماله – فهـو مفرط يستحق العقوبة .

القسم الثالث: ما أجرى اللـه العـادة بـه فـى الدنيا فى الأعم الأغلب ، وقد يخـرق العـادة فـى ذلك لمن شاء من عبـاده وهـى أنـواع : كالأدويـة مثلاً وقـا اختلـف العلمـاء : هـل الأفضـل لمـن أصابه المرض التداوى أم تركه لمن حقق التوكل على الله ؟

فيه قولان مشهوران، وظـاهر كلام الإمـام أحمـد أن التوكل لمن قوى عليـه أفضـل لمـا صـح عـن النبى أنه قال " يدخل الجنة من أمـتى سـبعون ألفاً بغير حساب ثم قال : هم الذين لا يتطيرون ولا يسترقون ولا يكتـوون وعلـى ربهـم يتوكلـون "[1] .

---

[1] () رواه البخارى (10/155) الطـب ،(3/88) الإيمـان، الترمـذى (9/267) صفة القيامة وفيه زيادة : " مع كل ألف سـبعون ألفـاً وثلاث حثيات من حثياته"، وقال : هذا حديث حسن صـحيح، وحسـن الألبـانى هذه الزيادة .

ومن رجح التداوى قال : إنـه حـال النـبى الـذى كـان يـداوم عليـه – وهـو لايفعـل إلا الأفضـل – وحمـل الحـديث علـى الرقـى المكروهـة، الـتى يخشـى منهـا الشـرك ، بـدليل أنـه قرنهـا بـالكى والطيرة وكلاهما مكروه .

قال مجاهـد ، وعكرمـة ، والنَخعـى ، وغيـر واحـد من السلف: لا يرخص فى تلك السبب بالكلية إلا لمـن انقطـع قلبـه عـن الاستشـراف إلـى المخلوقين بالكلية .

وسئل إسحق بن راهويه: هل للرجل أن يـدخل المفازة بغير زاد؟ فقال : " إن كان الرجـل مثـل عبد الله بن جبير فله أن يدخل المفازة بغير زاد، وإلا لم يكن له " .

10 – محبة الله عز وجلّ :

المحبة لله هى الغاية القصـوى مـن المقامـات ، والـذروة العليـا مـن الـدرجات ، فمـا بعـد إدراك المحبة مقام إلا وهو ثمرة من ثمارها، وتابع مـن توابعهـا كالشـوق ، والإنـس والرضـى، ولا قبـل المحبة مقام إلا وهو مقدمة من مقدماتها كالتوبة ، والصبر، والزهد، وغيرها .

وأنفع المحبة على الإطلاق وأوجبها، وأعلاها، وأجلها، محبة من جبلت القلوب على محبته ، وفطرت الخليقة على تأليهه، فإن الإله هى التى تألهه القلوب بالمحبة ، والإجلال، والتعظيم، والذل له ، والخضوع، والتعبد، والعبادة لا تصلح إلا له وحده ، والعبادة : هى كمال الحب مع كمال الخضوع والذل .

والله تعالى يُحَبّ لذاته من جميع الوجوه ، وما سواه فإنما يحب تبعاً لمحبته، وقد دل على وجوب محبته سبحانه جميع كتبه المنزلة، ودعوة جميع الرسل، وفطرته التى فطر عباده عليها ، وما ركّب فيهم من العقول، وما أسبغ عليهم من النعم، فإن القلوب مفطورة مجبولة على محبة من أنعم عليها، وأحسن إليها، فكيف بمن كل الإحسان منه ، وةما يخلقه جميعهم من نعمة فمنه وحده لاشريك له ، كما قال تعالى : **وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ** (النحل : الآية 53) .

وما تعرف به إلى عباده من أسمائه الحسنى، وصفاته العلا، وما دلت عليه آثار مصنوعاته من كمالاته ونهاية جلاله وعظمته .

قـال تعـالى: ﴿ **وَمِنَ النَّـاسِ مَـن يَتَّخِـذُ مِـن دُونِ اللّـهِ أَنـدَاداً يُحِبُّـونَهُمْ كَحُـبِّ اللّـهِ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلّـهِ** ﴾ (البقرة : مـن الآية 165) .

وقال تعالى: ﴿ **وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُواْ أَهَـؤُلاء الَّذِينَ أَقْسَمُواْ بِـاللّهِ جَهْـدَ أَيْمَـانِهِمْ إِنَّهُـمْ لَمَعَكُـمْ حَبِطَـتْ أَعْمَـالُهُمْ فَأَصْـبَحُواْ خَاسِرِينَ يَـا أَيُّهَـا الَّـذِينَ آمَنُـواْ مَـن يَرْتَـدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَـوْفَ يَـأْتِي اللّـهُ بِقَـوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِـزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَـبِيلِ اللّـهِ وَلاَ يَخَـافُونَ لَوْمَـةَ لآئِـمٍ** ﴾ (المائدة : مـن الآيتين 53، 54) .

وقد أقسم النبى ﷺ إنه: " لايؤمن عبد حتى يكون هو أحب إليه من ولده، ووالده ، والناس أجمعين "[1] .

---

[1] () رواه البخارى (1/58) الإيمان، وسملم (2/15) الإيمـان، وقـال الحافظ: قوله :"لايؤمن " أى إيمانا كاملاً .وقال القاضى عيـاض وابـن بطال وغيرهما: المحبة= =ثلاثة أقسام: محبة إجلال وإعظام كمحبـة الوالد، ومحبة شفقة ورحمة كمحبة الولـد، ومحبـة مشـاكلة وإحسـان كمحبة سائر الناس، فجمع [illegible] . [illegible] : [illegible]
[illegible] : [illegible]
[illegible] .

وقــال لعمـر بـن الخطـاب : " لا حـتى أكـون أحــب إليـك مـن نفسـك "[2]. أى لا تـؤمن حـتى تصل محبتك إلى هذه الغاية .

وإذا كان النبى أولى بنا من أنفسنا فـى المحبـة ولوازمها، أفليس الربّ جل جلاله أولـى بمحبتـه وعبادته من أنفسنا ؟ .

وكل ما منه إلى عبـده يـدعوه إلـى محبتـه ممـا يحب العبـد ويكـره، فعطـاؤه ومنعـه، ومعافـاته، وابتلاؤه، وقبضـــــه وبســـــطه، وعـــــدله ، وفضله،وإماتته وإحياؤه ، وبره ورحمته وإحسـانه وسـتره ، وعفـوه وحلمـه ، وصـبره علـى عبـده، وإجـابته لـدعائه ، وكشـف كربـه وإغـاثته لهفتـه وتفريج كربته، من غير حاجة منـه إليـه، بـل مـع غناه التام عنه من جميـع الوجـوه، كـل ذلـك داعٍ للقلوب إلى تأليهه ومحبته، فلو أن مخلوقاً فعلً بمخلوق أدنى شىء من ذلك لم يملك قلبـه عـن محبته، فكيف لايحب العبد بكل قبلبـه وجـوارحه من يحسن إليه علـى الـدوام بعـدد الأنفـاس مـع إساءته ؟ .

فخيره إليه نازل ، وشره إليه صاعد، يتحبب إليــه بنعمــه وهــو غنــى عنــه، والعبــد يتبغــض إليــه

---

[2] () رواه البخارى (11/523) الإيمان والنذور .

بالمعاصى ، وهـو فقيـر إليـه- فلا إحسـانه وبـره وإنعـامه عليـه يصـده عـن معصـيته، ولامعصـية العبد ولؤمه يقطع إحسان ربه عنه .
وأيضاً: فكل من تحبه من الخلـق ويحبـك إنمـا يريدك لنفسـك، وغرضـه منـك ، واللـه سـبحانه وتعالى يريدك لك .

وأيضاً: فكل من تعامله من الخلق إن لـم يربـح عليك لم يعاملـك،ولا بـد لـه مـن نـوع مـن أنـواع الربـح، واللـه تعـالى يعاملـك لتربـح أنـت عليـه أعظم الربح وأعلاه ، فالدرهم بعشرة أمثاله إلى سـبعمائة ضعف إلـى أضعاف كـثيرة، والسـيئة بواحدة وهى أسرع شىء محواً .

وأيضاً: فهو سبحانه خلقـك لنفسـه، وخلـق كـل شىء لـك فـى الـدنيا والآخـرة، فمـن أولـى منـه باستفراغ الوسع فى محبته ، وبـذلك الجهـد فـى مرضاته .

وأيضاً: فَمطالبـك – بـل مطـالب الخلـق كلهـم جميعـاً – لـديه، وهـو أجـود الأجـودين، وأكـرم الأكرمين، أعطى عبده قبـل أن يسـأله فـوق مـا يؤمله، يشكر القليل مـن العمـل وينميـه، ويغفـر الكـثير مـن الـذلل ويمحـوه، يسـأله مَـنْ فـى السـموات والأرض كـل يـوم هـو فـى شـأن، لا

يشغله سمع عن سمع ، ولا تغلطه كثرة المسائل ، ولا يتبرم بإلحاح الملحين فى الدعاء ، ويحب أن يُسأل ويغضب إذا لم يُسأل ، ويستحى من عبده حيث لا يستحى العبد منه، ويستره حيث لا يستر نفسه ، ويرحمه حيث لا يرحم نفسه، ودعاه بنعمه وإحسانه وأياديه إلى كرامته ورضوانه فأبى ، فأرسل رسله فى طلبه ، وبعث إليه معهم عهده، ثم نزل إليه سبحانه بنفسه، وقال : " من يسألنى فأعطيه، من يستغفرنى فأغفر له "[1] .

وكيف لاتحب القلوب من يأتى بالحسنات إلا هو ، ولايجيب الدعوات ويقيل العثرات ، ويغفر الخطيئات، ويستر العورات، ويكشف الكربات، ويغيث اللهفات، وينيل الطلبات سواه ؟

فهو أحق من ذكر، وأحق من شكر، وأحق من عُبد، وأحق من حمد، وأنصر من ابتغى ، وأرأف من ملك، أجود من سئل، وأوسع من أعطى، وأرحم من استرحم ، وأكرم من قُصد، وأعز من التجىء إليه، وأكفى من توكل عليه، وأرحم بعبده من الوالدة بولدها، وأشد فرحاً

---

[1] () رواه البخارى (13/464) التوحيد ، ومسلم (6/38، 39) صلاة المسافرين، والترمذى (13/30) الدعوات ، وأبو داود (1301) الصلاة .

بتوبـة التـائب مـن الفاقـد لراحلتـه الـتى عليهـا طعامه وشرابه فى الأرض المهلكة إذا يئس من الحياة ثم وجدها ، وهو الملك لاشريك له، والفرد لاند له، كل شىء هالكٌ إلى وجهـه، لـن يطـاع إلا بـإذنه ، ولـن يعصـى إلا بعلمـه، يُطـاع فيشـكر، وبتوفيقه ونعمتـه أطيـعَ ، ويعصـى فيعفـو ويغفـر وحقه أضيع، فهـو أقـرب شـهيد، وأجـل حفيـظ ، وأوفـى بالعهـد ، وأعـدل قـائم بالقسـط ، حـال دون النفـوس، وأخـذ بالنواصـى ، وكتـب الآثـار ، ونسخ الآجال ،فالقلوب له مفضية ، والسر عنده علانية، والغيب لديه مكشـوف ، وكـل أحـد إليـه ملهـوف ، وعنـت الوجـوه لنـور وجهـه، وعجـزت العقول عـن إدراك كنهـه، ودلـت الفطـر والأدلـة كلها علـى امتنـاع مثلـه وشـبهه، وأشـرقت لنـور وجهه الظلمات واستنارت له الأرض والسماوات ، وصـلحت عليـه جميـع المخلوقـات، لا ينـام ولا ينبغى له أن ينام، يخفض القسط ويرفعـه، يُرفـع إليه عمل الليل قبـل النهـار، وعمـل النهـار قبـل الليل ، حجابه النور ولو كشفه لأحرقت سـبحاتُ وجهه ما إنتهى إليه بصره من خلقه .

ومحبة اللـه عـز وجـل هـى حيـاة القلـوب ، وغــذاء الأرواح، وليــس للقلــب لــذة ولا نعيــم ولافلاح ولا حياة إلا بهـا ،وإذا فقـدها القلـب كـان ألمـه أعظـم مـن ألـم العيـن إذا فقـدت نورهـا ،

والأذن إذا فقدت سـمعها، بـل فسـاد القلـب- إذا خلا من محبة فاطره وبارئه وإلهه الحق – أعظـم من فساد البدن إذا خلا من الروح ، وهذا الأمر لا يصدق به إلا من فيه حياة، وما لجرح بميت إيلام.

الآثـار : قـال فتـح الموصـلى : " المحـب لايجد للدنيا لذة ، ولا يغفل عـن ذكـر اللـه طرفـة عين " .

وقال بعضهم : " المحب طائر القلب، كـثير الذكر، متسبب إلـى رضـوانه بكـل سـبيل يقـدر عليها من الوسائل والنوافل دأباً وشوقاً " .

وأنشد بعضهم :

وكن لربك ذا حب لتخدمه إن المحبين للأحباب خُدّامُ

وأوصت امرأة من السلف أولادها فقالت لهم : " تعودوا حـب اللـه وطـاعته ، فـإن المتقيـن ألفـوا بالطاعة فاستوحشت جوارحهم من غيرهـا، فـإن عرض لهم الملعون بمعصية مرت المعصية بهـم محتشمة فهم لها منكرون".

وأنشد ابن المبارك :

تعصى الإله وا،ت تزعم حبه هذا
لعمرى فى القياس شنيع
لو كان حبك صادقاً لأطعته إن
المحب لمن يحب مطيــع

11 - الرضا بقضاء الله عزَّ وجلَّ :

للعبد فيما يكـره درجتـان : درجـة الرضـى، ودرجــة الصــبر، فالرضــا فضــل منــدوب إليــه، والصبر واجب على المؤمن حتم.

وأهل الرضا تارة يلاحظـون حكمـة المبتلـى وخيرته لعبده فى البلاء وأنه غيرمتهم فى قضائه ، وتارة يلاحظون عظمة المبتلى وجلالـه وكمـاله فيستغرقون فى مشاهدة ذلك حـتى لا يشـعرون بـالألم ، وهـذا يصـل إليـه خـواص أهـل المعرفـة والمحبــة ، حــتى ربمــا تلــذذوا بمــا أصــابهم لملاحظتهم صدوره من حبيبهم .
والفرق بيـن الرضـى والصـبر: أن الصـبر حبـس النفس وكفهـا عـن السـخط –مـع وجـود الألـم – وتمنـى زوال ذلـك ،وكـف الجـوارح عـن العمـل بمقتضى الجزع، والرضا: انشراح الصدر، وسعته بالقضاء، وترك زوال الألم – وإن وجد الإحسـاس بالألم – لكن الرضى يخففه بما يباشر القلب من

روح اليقين وزالمعرفة ، وإذا قـوى الرضـى فقـد يزيل الإحساس بالألم بالكلية.

قـال ابـن مسـعود : " إن اللـه تعـالى بقسـطه وعلمه جعل الروح والفرح فـى اليقيـن والرضـا، وجعل الهمّ والحزن فى الشك والسخط " .

وقال علقمة فى قـوله تعـالى: ﴿ **وَمَـن يُـؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ** ﴾ (التغابن : من الآية 11) .

هى المصيب تصيب الرجل فيعلـم أنهـا مـن عنـد الله فيسلم لها ويرضى.

وقـال النـبى : " ذاق حلاوة الإيمـان مـن رضـى بالله رباً وبالإسلام ديناً ومحمد رسولاً " [1] .

---

[1] () رواه مسلم (2/2) الإيمان ، والترمذى (10/91) الإيمـان ، قـال صاحب التجويد : معنى رضيت بالشـىء: قنعـت بـه واكتفيـت بـه ولـم أطلب معه غيره، فمعنى الحديث : لم يطلب غير الله تعالى ولم يسـع فى غير طريق الإسلام، ولم يسلك إلا ما يوافـق شـريعة محمـد [illegible]

وقال النبى ﷺ: " من قال حين يسمع النداء رضيت بالله رباً وبالإسلام ديناً ومحمد رسولاً غفرت ذنوبه " [2] .

ونظر علىّ بن أبى طالب ﷺ إلى عدىّ بن حاتم كئيباً ، فقال: مالى أراك كئيباً حزيناً ؟ فقال : وما يمنعنى وقد قتل ابناى وفقئت عينى فقال : ياعدىّ من رضى بقضاء الله جرى عليه وكان له أجر، ومن لم يرض بقضاء الله جرى عليه وحبط عمله .

دخل أبو الدرداء ﷺ على رجل يموت وهو يحمد الله فقال أبو الدرداء : أصبت إن الله عز وجل إذا قضى قضاء أحب أن يرضى به .

وقال أبو معاوية فى قوله تعالى : ﷺ **فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً** ﷺ (النحل : من الآية 97) . الرضا والقناعة .

قال الحسن: ": من رضى بما قسم له وسعه وبارك الله فيه، ومن لم يرض لم يسعه ، ولم يبارك له فيه " .

---

[2] () رواه مسلم (4/86) الصلاة، وأبو داود (521) الصلاة ، والترمذى (2/11، 12).

وقال عمر بن عبد العزيز: " ما بقى لى سرور إلا فى مواقع القدر"، وقيل له ما تشـتهى ؟ فقـال : " ما يقضى الله عز وجل " .

وقال عبـد الواحـد بـن زيـد : " الرضـا بـاب اللـه الأعظم ،وجنة الدنيا ، ومستراح العابدين " .

وقـال بعضـهم : " لـن يُـرى فـى الآخـرة أرفـع درجات من الراضين عـن اللـه تعـالى فـى كـل حـال ، فمـن وهـب لـه الرضـا فقـد تبلـغ أفضـل الدرجات"

وأصبح أعرابى وقد ماتت لـه أبـاعر (جمـع بعير) كثيرة فقال :

لا والذى أنا عبدٌ فى عبادته لولا
شماتة أعداء ذوى إحن

ما سرنى أن إبلى فى مباركها
وأن شيئاً قضاه الله لم يكن

12 – الخوف والرجاء :

الخــوف والرجــاء جناحــان بهمــا يطيــر المقربون إلى كل مقام محـدود، ومطيتـان بهمـا يقطع من طرق الآخرة كل عقبة كؤود، فلا يقــود إلى قرب الرحمن وروح الجنـان مـع كـونه بعيـد الأرجـاء ثقيـل الأعبـاء محفوفـاً بمكـاره القلـوب ومشاق الجوارح والأعضـاء إلا أزمـة الرجـاء، ولا يقصد عن نار الجحيم والعـذاب الأليـم مـع كـونه محفوفاً بلطائف الشـهوات وعجـائب اللـذات إلا سـياط التخويـف وسـطوات التعنيـف فلا بـد إذاً من بيـان حقيقتهمـا وفضـيلتهما وسـبل التوصـل إلى الجمع بينهما والله الموفق للخيرات الهــادى لأعلى الدرجات .

أ - الرجـــاء :

هو ارتياح القلـب لانتظـار مـا هـو محبـوب عنده .

وإذا كانت الأسباب غيـر موجـودة فاسـم الغـرور والحمق عليه أصدق، وإذا كان الأمر مقطوعاً فلا يسمى رجاء إذ لا يقال: أرجـو طلـوع الشـمس ، ولن يمكن أن يقال : أرجو نزول المطر .

وقد علم علماء القلوب: أن الدنيا مزرعة الآخرة ، والقلــب كــالأرض والإيمــان كالبــذور فيهــا ،

والطاعة جارية مجرى تقليب الارض وتطهيرها، ومجرى حفر الأنهار وسياقة الماء إليها.

والقلب المستهتر بالدنيا المستغرق بها كالأرض السبخة التى لاينمو فيها البذر، ويوم القيامة هو الحصاد، ولا يحصد أحد إلا ما زرع، ولا ينمو بذر إلا من بذر الإيمان، وقلما ينفع إيمان مع خبث القلب ، وسوء أخلاقه، وكما لاينمو بذر فى أرض سبخة فينبغى أن يقاس رجاء العبد المغفرة برجاء صاحب الزرع ، فكل من طلب أرضاً طيبة ، وألقى فيها بذراً طيباً غير عفن ولا مسوس ثم أمده بما يحتاج إليه فى أوقاته، ثم نقى الشوك والحشيش وكل ما يمنع نبات البذرة أو يفسده، ثم جلس منتظرا من فضل الله تعالى دفع الصواعق والآفات المفسدة، إلى أن يتم الزرع ويبلغ غايته، سُمى انتظاره رجاءاً ، وإن بث البذر فى ارض صلبة سبخة مرتفعة لا تصل إليها الماء، ولم يشتغل بتعهد البذر أصلاً ثم انتظر الحصاد منه، سُمى انتظاره حمقاً وغروراً لا رجاءاً .
فإذن اسم الرجاء إنما يصدق على انتظار محبوب تمهدت جميع أسبابه الداخلة تحت اختيار العبد، ولم يبق إلا ما ليس يدخل تحت اختيار العبد، وهو فضل الله تعالى بصرف القواطع والمفسدات ، فالعبد إذا بذر الإيمان ،

وسقاه بماء الطاعـات ، وطهّـر قلبـه مـن شـوك الأخلاق الرديئـة، وانتظـر مـن فضـل الله تعـالى تثبيته على ذلـك إلـى المـوت، وحسـن الخاتمـة المفضـية إلـى المغفـرة، كـان انتظـاره رجـاءاً حقيقياً .

قــال تعــالى : ﴿ **إِنَّ الَّــذِينَ آمَنُــواْ وَالَّــذِينَ هَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ فِي سَـبِيلِ اللّـهِ أُوْلَـئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللّهِ وَاللّـهُ غَفُـورٌ رَّحِيـمٌ** ﴾ (البقرة : الآية 218) .

يعنى أولئك يستحقون أن يرجوا رحمة اللـه، ومـا أراد به تخصيص وجـود الرجـاء لأن غيرهـم أيضـاً قد يرجو ولكن خصص بهم استحقاق الرجاء.

ومن كان رجاؤه هادياً له إلى الطاعة، زاجراً لـه عن المعصية، فهو رجاء صحيح، ومن كان رجـاؤه داعياً له إلـى البطالـة والانهمـاك فـى المعاصـى فهو غرور .

ومـمـا ينبغـى أن يُعلـم أن مـن رجـا شـيئاً استلزم رجاؤه ثلاثة أمور :

الأول : محبة ما يرجوه .
الثانى : خوفه من فواته .
الثالث : سعيه فى تحصيله .

أما رجاء لا يقارنه شىء من ذلك فهو من باب الأمانى ، والرجاء شىء والأمنى شىء آخر .

وكل راج خائف ، والسائر على الطريق إذا خاف أسرع السير مخافة الفوات .

عن أبى هريرة قال : قال رسول الله : " ما خاف أدلج ومن أدلج بلغ المنزل ، ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله الجنة " [1] .

أخبار الرجاء

الآيات : قوله سبحانه وتعالى : **قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ** (الزمر : الآية 53) .

---

[1] () رواه الترمذى (10/227) صفة القيامة،وقال : حديث حسن غريب ، والحاكم (4/308) الرقاق، وقال : صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبى والألبانى. ومعنى أدلج : أى سار من أول الليل، والمعنى : أن من خاف ألزمه الخوف السلوك إلى الآخرة والمبادرة بالأعمال الصالحة خوفاً من القواطع والعوائق .

وقـولـه عـز وجـل : ﴿ **وَإِنَّ رَبَّـكَ لَـذُو مَغْفِـرَةٍ لِّلنَّـاسِ عَلَـى ظُلْمِهِـمْ وَإِنَّ رَبَّـكَ لَشَـدِيدُ الْعِقَابِ** ﴾ (الرعد :من الآية 6) .

الأحاديث : ما ورد فى صحيح مسلم عنـه ﷺ أنـه قال : " لايموت رجل مسلم إلا أدخل الله مكـانه فى النار يهودياً أو نصرانياً "[1] .

وعن عمر بن الخطاب □ : قدم على رسول الله ﷺ سبىٌ ، فـإذا امـرأة مـن السـبى تسـعى إذ وجدت صبياً فى السبى أخـذته فـألزقته ببطنهـا فـأرجعته، فقـال رسـول اللـه ﷺ : " أترون هـذه المرأة طارحة ولدها فى النار؟ " قلنـا :لا واللـه، فقال : الله أرحم بعبده المـؤمن مـن هـذه علـى ولدها "[2] .

وعن أبى هريرة □ عن رسول اللـه ﷺ : " إن اللـه كتب على نفسه بنفسـه قبـل أن يخلـق الخلـق : إن رحمتى تغلب غضبى " [3] .

وفى رواية : " غلبـت غضـبى" ، وفـى روايـة : " سبقت غضبى".

---

[1] () رواه مسلم (17/85) التوبة، قال النووى رحمـه اللـه معنـاه مـا جاءه فى حديث أبى هريرة □: [illegible]

[2] () رواه البخارى (10/426) الأدب ، ومسلم (17/70) التوبة .

[3] () رواه البخـارى (13/384) التوحيـد، ومسـلم (17/68) التوبـة والترمذى (3611تحفة) الدعوات .

وعن أنس قال : سمعت رسول الله يقول : : " قال الله تعالى : يـا ابـن آدم : إنـك مـادعوتنى ورجوتنى غفرت لك على ما كان منك ولا أبـالى، يـاابن آدم لـو بلغـت ذنوبـك عنـان السمـاء ثـم اسـتغفرتنى غفـرت لـك يـاابن آدم،لـو أتيتنـى بقـراب الأرض خطايـا ثـم لقيتنـى لاتشـرك بـى شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة[1] ".

قال يحيى بن معـاذ: " مـن أعظـم الاغـترار عنـد التمادى فى الـذنوب مـع رجـاء العفـو مـن غيـر ندامة ، وتوقع القرب من الله تعالى بغير طاعـة، وانتظـار زرع الجنـة ببـذر النـار، وطلـب دار المطيعيـن بالمعاصـى، وانتظـار الجـزاء بغيـر عمل، والتمنى على الله عز وجل مع الإفراط " .

ترجو النجاة ولـم تسـلك مسـالكها*إن السفينة لا تجرى على اليبس

ب - الخوف :

الخوف: سوط الله يسوق به عباده إلـى العلـم والعمل لينالوا بهما القرب من الله تعـالى ، وهـو عبارة عن: تـألم القلـب واحـتراقه بسـبب توقـع

---

[1] () تقدم تخريجه ص (44).

مكروه فى الاستقبال ، والخوف هـو الـذى يكـف الجوارح عن المعاصى ويقيدها بالطاعات .

والخوف القاصر يدعو إلى الغفلة والجـرأة علـى الذنب والإفراط فـى الخـوف يـدعو إلـى اليـأس والقنوط.

والخوف من الله تعالى تارة يكـون لمعرفـة اللـه تعالى ، ومعرفة صفاته، وأنه لـو أهلـك العـالمين لم يبال ، ولـم يمنعـه مـانع، وتـارة يكـون لكـثرة الجناية من العبد بمقارفة المعاصى ، وتارة يكون بهما جميعاً ، أو بحسب معرفته بعيـوب نفسـه ، ومعرفتـه بجلال اللـه تعـالى واسـتغنائه ، وأنـه لا يسأل عما يفعل وهم يسألون ، تكون قوة خوفه.

فـأخوف النـاس لربـه أعرفهـم بنفسـه وبربـه، ولـذلك قـال : " والل ه إنـى لأعلمهـم بـالله وأشدهعم له خشية " [1].

وقيل للإمام الشـعبى: يـا عـالم: قـال إنمـا العالم من يخشى الله وذلك لقول الله عز وجـل : **إِنَّمَا يَخْشَى اللَّـهَ مِـنْ عِبَـادِهِ الْعُلَمَـاء** (فاطر : من الآية 28) .

---

[1] () رواه البخارى (10/513) الأدب ، ومسلم (15/106) الفضائل ، وأحمد (6/45، 181).

وقال ابن مسعود : " كفى بخشية الله علماً وكفى بالاغترار جهلاً".

ولذلك قيل: ليس الخائف من يبكى ويمسح عينيه ، بل من يترك ما يخاف أن يعاقب عليه ،وقيل لذى النون المصرى: متى يكون العبد خائفاً ؟ قال : " إذا نزل نفسه منزلة السقيم الذى يحتمى مخافة طول السقام ".

وقال أيو القاسم الحكيم: " من خاف شيئاً هرب منه ، ومن خاف الله هرب إليه ".

وقال الفضيل بن عياض: " إذا قيل لك : هل تخاف الله فاسكت فإنك إن قلت : نعم ، كذبت ، وإن قلت : لا ، كفرت " .

والخوف يحرق الشهوات المحرمة فتصير المعاصى المحبوبة عنده مكروهة ، كما يصير العسل مكروهاً ، عند من يشتهيه إذا عرف أن فيه سماً ، فتحرق الشهوات بالخوف ، وتتأدب الجوارح ، ويحصل فى القلب الخضوع والذلة والاستكانة ويفارقه الكبر والحقد والحسد ، بل بصير مستوعب الهم بخوفه، والنظر فى خطر عاقبته ، فلا يتفرغ لغيره، ولا يكون له شغل إلا المراقبة والمحاسبة والمجاهدة ، والضنة

بالأنفـــاس واللحظـــات ، ومؤاخـــذة النفـــس بالخطرات ، والخطوات والكلمات ، ويكون حاله حال من وقع فى مخلب سـبع ضـار ،لايـدرى أنـه يغفل عنه فيفلت، أو يهجم عليه فيهلـك ، فيكـون بظاهره وبـاطنه مشـغولاً بمـا هـو خـائف منـه لا متسع فيه لغيره ، فهذا حال من غلبه الخوف .

فضيلة الخوف

جمـع اللـه عـز وجـلّ لأهـل الخـوف والهـدى والرحمـة، والعلـم، والرضـوان، فقـال تعـالى : ﴿ **هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُـمْ لِرَبِّهِـمْ يَرْهَبُـونَ** ﴾ (الأعراف: من الآية 154) .

وقال تعالى: ﴿ **إِنَّمَا يَخْشَى اللَّـهَ مِـنْ عِبَـادِهِ الْعُلَمَاء** ﴾ (فاطر: من الآية 28) .

وقال عز وجل: ﴿ **رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُـمْ وَرَضُـوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ** ﴾ (البينة: من الآيـة 8) .

وقد أمر الله عز وجل بالخوف، وجعله شرطاً فى الإيمان، فقال عز وجل : ﴿ **وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ** ﴾ (آل عمران: من الآية 175) .

فلذلك لا يتصور أن ينفك مؤمن عن خوف وإن ضعف، ويكون ضعف خوفه بحسب ضعف معرفته وإيمانه .

وقال رسول الله ﷺ: " إن رجلا حضره الموت فلما يئس من الحياة أوصى أهله إذا أنا مت فاجمعوا لى حطباً كثيراً وأوقدوا فيه ناراً ، حتى إذ أكلت لحمى، خلصت إلى عظمى فامتحشت ، فخذوها فاطحنوها ثم انظروا يوماً راحاً فأذروه فى اليم ففعلوا فجمعه الله فقال له : لم فعلت ذلك؟ قال : من خشيتك : فغفر الله له " [1].

قال ﷺ:" لايلج النار أحد يبكى من خشية الله تعالى حتى يعود اللبن فى الضرع " [2].

قال الفضيل بن عياض: " من خاف الله دله الخوف على كل خير".

---

1 () رواه البخارى (6/494) أحاديث الأنبياء ، وسملم (17/70)، والنسائى(4/113) الجنائر، وابن ماجه (3432) الزهد، وأحمد (2/269).

2 () رواه الترمذى (7/130) فضائل الجهاد، وقال : هذا حديث حسن صحيح، وصححه الألبانى .

وقال يحيى بن معاذ:" مـا مـن مـؤمن يعمـل سيئة إلا ويلحقها جنتان: خوف العقـاب ، ورجـاء العفو " .

وقال الحسن البصرى: " إن المـؤمنين قـوم ذلت منهم – والله- الأسماع والأبصار وزالجـوارح حـتى يحسـبهم الجاهـل مرضـى وإنهـم واللـه الأصحاء، ولكن دخلهم مـن الخـوف مـالم يـدخل غيرهم ومنعهم من الدنيا علمهم بالآخرة فقـالوا: الحمد الله الذى أذهب عنا الخوف، أما – واللـه – ما أحزنهم ما أحزن الناس ولا تعاظم فى قلوبهم شىء طلبوا به الجنة إنه من لم يتعـز بعـزاء اللـه تقطعت نفسه على الدنيا حسـرات ومـن لـم يـر لله عليه نعمة فى غير مطعم أو شرب فقـد قـل علمه وحضر عذابه " .

الأخبار فى الخوف

قال الله تعالى:ۢ **إِنَّ الَّـذِينَ هُـم مِّـنْ خَشْـيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ وَالَّذِينَ هُـم بِآيَـاتِ رَبِّهِـمْ يُؤْمِنُـونَ وَالَّـذِينَ هُـم بِرَبِّهِـمْ لا يُشْـرِكُونَ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ أُوْلَئِكَ يُسَـارِعُونَ فِـي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ** (آل عمــران: الآية 57 - 61) .

وقد روى الترمذى فى جامعه عن عائشــة رضــى الله عنها قالت: سـألت رسـول اللــه عـن هـذه الآية فقلت : أهم الذين يشربون الخمـر ويزنـون ويسرقون؟ فقال : " لا يا ابنة الصـديق، ولكنهـم الذين يصومون ، ويصـلون ويتصـدقون ويخـافون

ألا يتقبل منهم ، أولئـك يسـارعون فـى الخيـرات "[1] .

عن أنس قال: خطـب رسـول اللـه خطبـة مـا سمعت مثلها فقط، فقال : " لو تعلمون ما أعلم لضـحكتم قليلا ولبكيتـم كـثيراً " فغـط أصـحاب رسول الله وجوههم ولهم خنين، وفـى روايـة : بلغ رسول اللـه عـن أصـحابه شـىء فخطـب ، فقـال : " عرضـت علـى الجنـة والنـار فلـم أر كاليوم من الخيـر والشـر ولـو تعلمـون مـا أعلـم لضـحكتم قليلا ولبكيتـم كـثيراً " فمـا أتـى علـى أصـحاب رسـول اللـه يـوم أشـد منـه غطـوا رؤوسهم ولهم خنين "[2] .

ومعنى الحديث: لو أنكـم علمتـم مـا أعلمـه مـن عظمـة اللـه عـز وجـل، وانتقـامه ممـن يعصـيه، لطال بكاؤكم وحزنكم وخوفكم ممـا ينتظركـم ، ولما ضحكتم أصلاً ، فالقليل هنا بمعنى المعدوم، وهو مفهوم من السياق .

---

[1] () رواه الترمذى (12/4) التفسير وابن ماجه (4198)، والحـاكم (2/394) التفسير، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الـذهبى، وفى سنده انقطاع وله شاهد عند ابن جريـر، وانظـر جـامع الأصـول (2/254) وصححه الألبانى .

[2] () رواه البخارى (11/319) الرقـاق، والترمـذى (9/124) الزهـد. والخنين : هوالبكاء مع غنة بانتشار الصوت من الأنف .

وروت السيدة عائشة رضى الله عنها: أن رسول اللـه كـان إذا تغيّـر الهـواء وهبـت ريـح عاصـفة يتغير ويتردد فى الحجرة ويدخل ويخرج، كل ذلك خوفاً من عذاب الله [1].

وروى عبد الله بن الشخير: أن رسول الله كان إذا دخل فـى الصـلاة يسـمع لصـدره أزيـز كـأزيز المرجل [2] .

ومن تأمل أحوال الصحابة رضى الله عنهم ومن بعـدهم مـن الصـالحين مـن سـلف هـذه الأمـة ،وجدهم فى غاية العمل مع غاية الخـوف، ونحـن جمعنا بين التقصير بل التفريط والأمن.

فهـذا الصـديق يقـول: وددت أنـى شـعرة فـى جنب عبد مؤمن ، وكان إذا قام إلى الصـلاة كـأنه عود من خشية الله عز وجل .

---

1 () رواه البخـارى (6/347)بـدء الخلـق بمعنـاه ومسـلم (6/196) الاستسقاء .

2 () رواه أبـو داود (890) الصـلاة بلفـظ الرحـى، والنسـائى (3/13) والسـهو، وأحمـد(4/25،26) وصـححه الألبـانى ، وقـال السـيوطى: " أزيز" : أى خنين من الجوف وهو صوت البكاء وهـو أن يجيـش جـوفه ويغلى بالبكاء: كأزيز المرجل " وهـو بالكسـر: الإنـاء الـذى يغلـى فيـه الماء سواء كان من حديد أو صـفيح ،أو حجـارة أو خـزف – هـامش (3/13) النسائى .
وقال فى المرقاة : وفى الحديث دليل على أن البكاء لا يبطـل الصـلاة سواء ظهر منه حرفـان أم لا واسـتدل علـى جـواز البكـاء فـى الصـلاة بقوله تعالى : **إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سُجّدا وبُكياً** (مريم 58) . عون المعبود (3/173).

وهذا عمر بن الخطاب قرأ سورة الطور حتى بلغ: **إنّ عَذابَ ربِكَ لَواقِعٌ** (الطور: الآية 7) . بكى واشتد بكاؤه حتى مرض وعادوه ، وقال لابنه وهو يموت : ويحك ضع خدى على الأض عساه يرحمنى ثم قال : ويل أمى لم يغفر لى –ثلاثاً –ثم قضى ، وكان يمر بالآية فى ورده بالله تخيفه فيبقى فى البيت أياماً يعاد يحسبونه مريضاً ، وكان فى وجهه خطان أسودان من كثرة البكاء.

وقال له ابن عباس : " مصّر لله بك الأمصار،وفتح بك الفتوح وفعل " فقال : " وددت أن أنجو لا أجر ولا وزر " .

وهذا عثمان بن عفان كان إذا وقف على القبر يبكى حتى يبل لحيته، قال : " لو أننى بين االجنة والنارٍ ولا أدرى إلى أيتهما أصير لاخترت أن أكون رماداً قبل أن أعلم إلى أيتهما أصير " .

وهذا أبو الدرداء كان يقول : " لو تعلمون ما أنتم لاقون بعد الموت، ماأكلتم طعاماً على شهوة ،ولا شربتم شراباً على شهوة أبداً ، ولا دخلتم بيتاً تستظلون به ، ولخرجتم إلى الصعيد

تضــربون صــدوركم وتبكــون علــى أنفســكم ، ولوددت أنى شجرة تعضد ثم تؤكل " .

وكان ابـن عبـاس أسـفل عينيـه مثـل الشـراك البالى من كثرة الدموع.

وقال علىّ –كرم الله وجهه- قد سـلّم مـن صـلاة الفجر، وقـد علاه كآبـة وهـو يقلـب يـده : " لقـد رأيت أصحاب رسول الله فلم أر اليـوم شـيئاً يشبههم ، لقد كانوا يصبحون شـعثاً صـفراً غـبراً بين أعينهم أمثال ركب المعزى ، قد باتوا سـجداً وقياما يتلون كتاب الله ، يراوحون بيـن جبـاههم وأقدامهم ، فإذا أصبحوا ذكـروا اللـه تمـادوا كمـا يميـد الشـجر فـى يـوم الريـح، وهملـت أعينهـم بالدموع حتى يتبل ثيابهم ، واللـه فكـأتى بـالقوم باتوا غافلين". ثم قام فما رؤى بعد ذلـك ضـاحكاً حتى ضربه ابن ملجم .

وقال موسى بن مسعود : " كنـا إذا جلسـنا إلـى سفيان كأن النار قـد أحـاطت بنـا لمـا نـرى مـن خوفه وجزعه ".

ووصف أحـدهم الحسـن فقـال: " كـان إذا أقبـل فكأنما أقبل من دفن حميمه، وإذا جلـس فكـأنه

أسير أمر بقطع رقبته، وإذا ذكرت النار فكأنها لم تخلق إلا له " .

ورُوى أن زرارة بـن أبـى أوفـى صـلّى بالنـاس الفجـر بسـورة المـدثر، فلمـا قـرأ قـوله تبـارك وتعالى : ﴿ **فَإِذَا نُقِـرَ فِـي النَّـاقُورِ فَـذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِـيرٌ** ﴾ (المدثر: الآية 8-9) . أخذته شهقة فمات .

عن عبد اللـه بـن عمـرو بـن العـاص أن قـال : " ابكوا فإن لم تبكو فتباكوا، فوالذى نفسى بيـده : لو يعلم العلم أحدكم لصرخ حتى ينقطع صـوته ، وصلى حتى ينكسر صلبه " .

التوبة

التوبة من الذنوب بالرجوع إلـى سـتّار العيـوب ، وعلاّم الغيوب ، مبـدأ طريـق السـالكين ، ورأس مال الفـائزين ، وأول إقـدام المريـدين ، ومفتـاح استقامة المائلين، ومطلع الأصـطفاء ، والاجتبـاء للمقربين .

ومنزل التوبة أول المنازل ، وأوسطها ،وآخرها، فلا يفارقها العبد السالك ولا يزال فيه إلى الممات وإن ارتحل إلى منزل آخر ارتحل به واستصحبه معه ، ونزل به ، فالتوبة هى بداية العبد ونهايته، وقد قال تعالى :

﴿ **وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** ﴾ (النور: من الآية 31)

وهذه الآية فى سورة مدنية خاطب الله بها أهل الإيمان وخيار خلقه أن يتوبوا إليه بعد إيمانهم وصبرهم ، وهجرتهم ، وجهادهم ، ثم علق الفلاح بالتوبة وأتى بكلمة " لعل" إيذانا بأنكم إذا تبتم كنتم على رجاء الفلاح ، فلا يرجو الفلاح إلا التائبون جعلنا الله منهم ، وقال تعالى : ﴿ **وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ** ﴾ (الحجرات: من الآية 11)

فقسم العباد إلى : " تائب " و " ظالم " وليس ثم قسم ثالث ، وأوقع اسم الظالم على من لم يتب ولا أظلم منه لجهله بربه وبحقه وبعيب نفسه وآفات أعماله ، وفى الصحيح عنه أنه قال : "يا أيها الناس توبوا إلى الله فوالله إنى أتوب إليه فى اليوم أكثر من سبعين مرة "[1].

---

[1] () تقدم تخريجه ص (44).

والتوبة هى: رجوعُ العبد إلى الله ومفـارقته لصراط المغضوب عليهم والضالين .

وشرائط التوبة ثلاثة : إذا كـان الـذنب فـى حق الله عز وجل .

وهـــــى : " **النـــــدم** " و " **الاقلاع**" ، و " **العزم على عدم العودة** " .

فأما **الندم** فـإنه لا تتحقـق التوبـة إلا بـه إذ من لم يندم على القبيح فذلك دليل علـى رضـائه به وإصراره عليه ، وفى المسند : "الندم توبة ".

واما " **الإقلاع**" فتسـتحيل التوبـة مـع مباشـرة الذنب .

والشرط الثـالث : هـو : " **العزم علـى عـدم العودة** " ويعتمد أساساً على اخلاص هذا العزم والصدق فيه،وشرط بعض العلماء عدم معـاودة الـذنب وقـال : مـتى عـاد إليـه تبيّنّـا أن التوبـة كانت باطلةٍ غير صحيحة والأكثرون على أن ذلك ليس شرطاً ، أما إذا كان الشرط متضمناً لحـق آدمـى فعلـى التـائب أن يصـلح مـا أفسـد ، أو يسترضى من أخطأ فى حقـه، لمـا ثبـت [1] عـن

---

[1] () رواه أحمد (1/376)، والحاكم (4/243) وصححه ، ووافقه الذهبى .

النبى أنه قال : من كان لأخيه عنده مظلمة من مال ،وعرض فليتحلله اليوم قبل ألا يكون دينار ولا درهم إلا الحسنات والسيئات".[1]

فهذا الذنب يتضمن حقين : حق الله وحق الآدمى، فالتوبة منه بتحلل الآدمى لأجل حقه ، والندم فيما بينه وبين الله لأجل حقه .

وهناك بعض التوبات الخاصة نذكر منها بعون الله تعالى ما يلى: إذا كانت المظلمة بقدح فى الآدمى بغيبة ، أو بقذف، فهل يُشترط إعلامه؟

مذهب أبى حنيفة ، ومالك اشترطوا الإعلام ، واحتجوا بالحديث السابق، والقول الآخر: أنه لايشترط الإعلام، بل يكفى توبته بينه وبين الله، وأن يذكر المغتاب أو المقذوف فى مواضع غيبته، أو قذفه بضد ما ذكره به، ويستغفر له، وهذا اختيارشيخ الإسلام ابن تيمية ، احتج لذلك بأن إعلامه مفسدة محضة لا تتضمن مصلحة، وما كان هكذا فإن الشارع لا يبيحه فضلا عن أن يوحبه أو يأمر به .

أما توبة من اغتصب مالا فعليه رد هذا المال لأصحابه ، فإن تعذر عليه رده لجهل ه بأصحابه ، أو لانقراضهم ، أو لغير ذلك فعليه أن يتصدق

[1] () رواه البخارى (5/101) المظالم ، والترمذى (9/254) صفة القيامة .

بتلك الأموال عن أربابها،فـإذا كـان يـوم اسـتيفاء الحقوق كان له الخيـار بيـن أن يجيـزوا مافعـل ، وتكون أجورها لهم ، وبين ألا يجيزوا ويأخذوا مـن حساناته بقدر أحوالهم ويكون ثواب تلك الصدقة له إذا لا يبطل الله سبحانه ثوابها.

فقد روى عن ابـن مسـعود اشـترى مـن رجـل جارية ودخل يزن له الثمن فذهب رب الجارية ، فإن رضى فالأجر له وإن أبى فالأجرلى وله من حسناتى بقدره .

وأمـا توبـة مـن عـاوض غيـره معاوضـة محرمـة وقبض العِـوض كبـائع الخمـر والمغنـى وشـاهد الزور ثم تاب والعوض بيده: فقالت طائفة يرده إلى مالكه إذ هو عينُ مـاله ، ولـم يقبضـه بـإذن الشارع ولا حصل لربه فـى مقـابلته نفـعٌ مبـاح، وقالت طائفـة – بـل وهـو أصـوب القـولين -:بـل توبته بالتصدق بـه وكيـف يـرد إلـى دافعـه مـالاً استعان به على معاصى الله ؟ وهكـذا توبـة مـن اختلط ماله الحلال بالحرام وتعـذر عليـه تمييـزه أن يتصدق بقدرالحرام ويطيب باقى ماله واللــه أعلم .

مسألة: إذا تاب العبد من الذنب هل يرجع إلى ما كان عليه قبل الذنب من الدرجة التى حط ه عنها الذنب أو لا يرجع إليها؟

قالت طائفة: يرجع إلى درجته لأن التوبة تجب الذنب بالكلية وتصيره كأن لم يكن .

وقالت أخرى: لايعود إلى درجته وحاله لأنه لم يكن فى وقوف ، وإنما كان فى صعود، فبالذنب صار فى هبوط ، فإذا تاب نقص عليه ذلك القدر الذى كان مستعداً به للترقى .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: والصحيح : أن من التائبين من لايعود إلى درجته ، ومنهم من يعود إلى أعلى منها فيصير خيراً مما كان قبل الذنب ، وكان داود بعد التوبة خيراً منه قبل الخطيئة ، وهنا مثلٌ مضروب : رجل مسافر سائر على الطريق بطمأنينة وأمْن فهو يعدو مرة ويمشى أخرى ، ويستريح تارة وينام أخرى فبينما هو كذلك إذ عرض له فى سيره ظل ظليل ، وماء بارد ومقيل ، وروضة مزهرة ، فدعته نفسه إلى النزول على تلك الأماكن فنزل عليها ، فوثب عليه منها عدو فأخذه وقيده ومنعه عن السير ، فعاين الهلاك وظن أنه منقطع به، وأنه رزق الوحوش والسباع ، وأنه قد حيل بينه وبين

مقصده الذى يؤمه، فبينما هو على ذلك تتقاذفه الظنون ، إذ وقف على رأسه والده الشفيق القادر فحل كتافه وقيوده ، وقال له : اركب الطريق واحذر هذا العدو فإنه على منازل الطريق لك بالمرصاد، واعلم أنك ما دمت حاذراً منه متيقظاً له لايقدرعليك فإذا غفلت وثبت عليك ، وأنا متقدمك إلى المنزل وفرط لك فاتبعنى على الأثر ، فإذا كان هذا السائر كيساً فطناً لبيباً حاضر الذهن والعقل استقبل سيره استقبالا آخر أقوى من الأول ، وأتم وأشتد حذره وتأهب لهذا العدو ،وأعد له عدته ، فكان سيره الثانى أقوى من الأول وخيراً منه ووصوله إلى المنزل أسرع وأن غفل عن عدوه ، وعاد إلى مثل حاله الأول من غير زيادة ولا نقصان ولا قوة حذر ولا استعداد، عاد كما كان ، وهو معرض لما عرض له أولاً ، وإن أورثه ذلك توانياً فى سيره وفتوراً ، وتذكراً لطيب مقيله وحسن ذلك الروض أو عذوبتة مائه لم يعد إلى مثل سيره ونقص عما كان .

التوبة النصوح

قال تعالى: **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ**

عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِـن تَحْتِهَا الأنهار (التحريم : من الآية 8)

وانصحُ فـي التوبـة: هـو تخليصـها مـن كـل غـش ونقص وفساد ،قال الحسن البصـرى : " هـى أن يكون العبد نادماً على مامضـى مجمعـاً علـى أن لايعود فيه "

وقال الكلبى : " أن يستغفر باللسان ويندم بـالقلب ويمسـك بالبـدن " وقـال سـعيد بـن المسيب : " توبة نصوحاً تنصحون بها أنفسـكم " قال ابنُ القيّم : " النصح فى التوبة يتضمن ثلاثـة أشياء " :

الأول : تعميـم الـذنوب واسـتغراقها بهـا بحيث لا تدع ذنبا إلا تناولته.
الثـانى : اجمـاع العـزم والصـدق بكلـتيه عليها بحيث لايبقى عنده تردد لا تلّـوم ولا انتظـار بل يجمع عليها كل إرادته عزيمته مبادراً بها .

الثالث : تخليصـها مـن الشـوائب والعلـل القادحة فى أخلاصها ووقوعهـا لمحـض الخـوف من الله وخشيته والرغبة فيما لديه والرهبة ممـا عنـده لا كمـن يتـوب لحفـظ حـاجته وحرمتـه ومنصـبه وريـاسـته أو لحفـظ وقتـه ومـاله أو

استدعاء حمد النـاس أوالهـرب مـن ذمهـم أولئلا يتسلط عليه السفهاء أو لقضاء نهمته من الـدنيا أو لإفلاسه وعجـزه ونحـو ذلـك مـن العلـل الـتى تقدح فى صحتها وخلوصها لله عز وجل .

فالأول : يتعلق بمـا يتـوب منـه ، والأوسـط :يتعلق بذات التائب ، والثالث : يتعلق بمن يتـوب إليــه، فنصــح التوبــة : الصــدقُ فيهــا والإخلاص وتعميـم الـذنوب بهـا ، ولا ريـب أن هـذه التوبـة تســتلزم الاســتغفار وتتضــمنه وتمحــو جميــع الذنوب وهى أكمل ما يكون من التوبة .

وتوبة العبد إلى الله محفوفة بتوبة من اللـه عليه قبلها وتوبة منـه بعـدها فتـوبته بيـن توبـتين من ربه سابقة ولاحقة فإنه تاب عليهه:
أولاً : إذناً وتوفيقاً وإلهامـاً ، فتـاب العبـد ، بتاب الله عليه .
ثانيـاً : قبـولاً وإثابـة لقـوله عـز وجـلّ : **وَعَلَــى الثَّلاَثَــةِ الَّــذِينَ خُلِّفُــواْ حَتَّــى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَـتْ وَضَـاقَتْ عَلَيْهِـمْ أَنفُسُـهُمْ وَظَنُّـواْ أَن لاَّ مَلْجَـأَ مِـنَ اللّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُواْ إِنَّ اللّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ** (التوبة: الآية 118)

فـأخبر سـبحانه: أو تـوبته عليهـم سـبقت توبتهم ,انها هى التى جعلتهم تائبين فكانت سببا مقتضيا لتوبتهم وهـذا القـدر مـن سـر أسـميه " الأول والآخرُ" فهو المعـد والممـد ومنـه السـبب والمسبب، والعبد تواب والله تواب ، فتوبة العبد رجوعه إلى سيده بعد الأباق ، وتوبة الله نوعـان : إذن وتوفيق، وقبول وإمداد .

والتوبـة لهـا مبـدأ ومنتهـى ، فمبـدؤها : الرجوع إلـى اللـه بسـلوك صـراطه المسـتقيمم الذى أمرهم بسلوكه بقوله تعالى : ﴿ **وَأَنَّ هَـذَا صِـرَاطِي مُسْـتَقِيمًا فَـاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُـواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَـبِيلِهِ** ﴾ (الأنعـام: من الآية 153)

ونهايتها : الرجوع إليه فـى المعـاد وسـلوك صراطه الذى نصبه موصلاً إلى جنته ، فمن رجع إلى اللـه فـى هـذه الـدار بالتوبـة رجـع إليـه فـى المعاد بالثواب ، قـال اللـه عـز وجـل : ﴿ **وَمَـن تَابَ وَعَمِـلَ صَـالِحًا فَـإِنَّهُ يَتُـوبُ إِلَـى اللَّـهِ مَتَابًا** ﴾ (الفرقان: الآية 71)

أسرار التوبة ولطائفها

اعلم أن العبد العقـال إذا صـدرت منـه الخطيئـة فله نظر إلى أمور :

أحدها: أن ينظر إلى أمر اللـه ونهيـه فيحـدث لـه ذلـك الاعـتراف بكونهـا خطيئـة والإقـرار علـى نفسه بالذنب .

الثانى : أن ينظر إلى الوعد والوعيد فيحـدث لـه ذلك خوفاً وخشية تحمله على التوبة .

الثالث : أن ينظر إلى تمكين الله له منها وتخليته بينه وبينها وتقديرها عليه وأنـه لـو شـاء لعصـمه منها فيحدث لك ذلك أنواعـاً مـن المعرفـة بـالله واسمائه وصفاته وحكته ورحمته وحلمه وكرمـه، وتوجب له عيودية بهذه الأسماء لا تحصل بـدون لوازمها البتة ،ويعلم ارتباط الخلق والأمر الوعيـد بأسـمائه وصـفاته وأن ذلـك مـوجب الأسـماء والصـفات وأثرهـا فـى الوجـود، وهـذا المشـهد يطلعه على رياض موفقة من المعارف والإيمـان

وأسرار القدر والحكمة يضيق عن التعبير عنها نطاق الكلم .

منها: أن يعرف العبد عزته فى قضائه ، وهو أنه سبحانه العزيز الذى يقضى بما يشاء وأنه لكمال عزته حكم على العبد وقضى عليه بأن قلب قلبه وصرف إرادته عل مايشاء وحال بين العبد وقلبه .

ومن معرفة عزته فى قضائه أن يعرف أنه مدبر مقهور ناصيته بيد غيره ، لا عصمة له إلا بعصمته ولا توفيق له إلا بمعونته فهو ذليل حقير فى قبضة عزيز حميد ،ومن شهود عزته فى قضائه أن يشهد أن الكمال والحمد والعزة كلها لله وأن العبد نفسه أولى بالتقصير والذم والعيب والظلم والحاجة ،ـ وكلما ازداد شهوده لذله ونقصه وعيبه وفقره ازداد شهوداً لعزة الله وكماله –وحده –غناه .

ومنها: أن يعلم بره – سبحانه –فى ستره عليه حال ارتكاب المعصية مع كمال رؤيته له ولو شاء لفضحه بين خلقه ، ومنها مشاهد حلم الله عز وجل فى إمهال راكب الخطيئة ولو شاء لعاجله بالعقوبة فيحدث له معرفة ربه – سبحانه – باسمه " **الحليم** " .

ومنهـا: معرفـة فضـل اللـه فـى مغفرتـه فـإن المغفرة فضل من اللـه وإلا فلـو أخـذك بمحـض حقـه كـان عـادلا محمـوداً وإنمـاعفوه بفضـله لا باستحقاقك فيوجب له ذلك شكراً ومحبة وإنابـة ومعرفة باسمه " **الغفار** " .

ومنها: أن يكمل لعبـده مراتـب الـذل والخضـوع والانكسار والافتقار وهى أربعة مراتب :

المرتبـة الأولـى : ذل الحاجـة والفقـر ، وهذه عامة فى جميعالخلق .
المرتبة الثانية : ذل الطاعـة والعبوديـة ،وهـو خاص لأهل طاعته.
المرتبـة الثالثـة : ذل المحبـة فـالمحب ذليل بالذات وعلى قدرمحبته يكون ذله.
المرتبة الرابعة : ذل المعصية والجنايـة وحقيقة ذلك هو الفقر .

فإذا اجتمعت هذه المراتب الأربع كـان الـذل للـه والخضوع له أكمل وأتم .

ومنها: أن اسم " الرزّاق " يقتضى مرزوقـاً ، و " السـميع البصـير" يقتضـى مسـموعاً ومبصـرا، كذلك أسماء " الغفور ، العفو ،التواب" يقتضـى

من يغفر له ويتوب عليه ويعفو عنه ، ويستحيل تعطيل هذه الأسماء والصفات .

وقد أشار إلى هذا أعلم الخلق بالله حيث يقول : " لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون ثم يستغفرون فيغفر لهم " [1]

ومن أسرارها: ما ورد فى الصحيحين من حديث أنس بن مالك قال : قال رسول الله : " لله أشد فرحاً بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته أرض فلاة فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه فأيس منها فأتى شجرة فاضطجع فى ظلها قد أيس من راحلته فبينما هو كذلك إذا هو بها قائمة عنده فأخذ يخطامها ثم قال من شدة الفرح : اللهم أنت عبدى ، وأنا ربك أخطأ من شدة الفرح " [2].

فما الظن بمحبوب لك تحبه حباً شديداً وأسره عدوك وحال بينك وبينه وأن تتعلم أن العدو سيسومه سوء العذاب ويعرضه لأنواع الهلاك وأنت أولى به منه وهو غرسك وتربيتك ثم إنه

---

1 () رواه مسلم (17/46)التوبة، والترمذى (9/523)الدعوات وهذالفظ مسلم وانظر طرق الحديث فى الصحيحة رقم 970.

2 () رواه مسلم (17/63) التوبة واللفظ له ، والبخارى مختصرا (11/102) الدعوات. ورواه مطولاً من حديث عبد الله بن مسعود (11/102) الدعوات .

انفلت من عـدوه ووافـاك علـى غيـر ميعـاد فلـم يفاجئـك إلا وهـوعلى بابـك يتملقـك ويترضـاك ويمـرغ خـديه علـى تـراب أعتابـك فكيـف يكـون فرحك به وقد اختصصته لنفسك ورضيته لقربـك وآثرته على ما سواه ، هذا ولست الذى أوجــدته وخلقتـه وأسـبغت عليـه نعمـك واللـه عـز وجـل هوالذى أوجد عبـده وخلقـه وأسـبغ عليـه نعمتـه وهو يحب أن يتمهاعليه.

وإلى هننا انتهـى مـا تيسـر لنـا جمعـه وترتيبـه ، والله نسأل أن يكون القبول نصـيبه وأن يرزقنـا يوم القيامة بره وذخره إنه علـى مـا يشـاء قـدير وبالإبجابة جدير وآخر دعوانا أن الحمـد \للـه رب العالمين .

فهرس المراجع

1- إحياء علوم الدين ، للغزالى بتحقيق العراقـى ط. الشعب.
2- إغاثـة اللهفـان مـن مصـايد اتلشـيطان، لابـن القيم ط. الحلبى.
3- تحفة الأشراف، للمزى. عبـد الصـمد شـرف الدين ط. الدار القيمة بالهند.
4- تفسـير القـرآن العظيـم، لابـن كـثير ط. دار المعرفة ببيروت.
5- تفسير المعـوذتين، لابـن القيـم ط. المطبعـة السلفية.
6- الترغيب والترهيب، للمنذرى.
7- جامع الأصول، لابن الأثير بتحقيق عبـد القـادر الأرناؤوط، ط. دار الفكر.
8- جامع العلوم الحكم، لابن رجب ، ط. الحلبى.
9- جلاء الأفهـام، لابـن القيـم ط. دار عمـر بـن الخطاب.
10- الجواب الكافى، لابن القيم.
11- رياض الصالحين ، للنـووى بتحقيـق الألبنـى ط. المكتب الإسلامى.
12- الروح، لابن القيم ، ط. محمد على صبيح.
13- سنن ابن ماجه، ط. المكتبة العلمية.
14- سنن الدارمى، ط. دار الكتب العلمية.
15- سلسلة الأحاديث الصحيحة، للألبانى.

16- سـنن النسـائى بشـرح السـيوطى وحاشـية السندى، ط. دار الكتب العلمية.
17- شــرح الســنة، للبغــوى بتحقيــق شــعيب الأرناؤوط.
18- صحيح ابن داود، للألبانى، ط. مكتب التربية العربى.
19- صحيح الترمذى، للأبانى ، ط. مكتب التربية العربى.
20- صــحيح ابــن مــاجه، للألبــانى، ط. مكتــب التربية العربى.
21- صـحيح مسـلم، بشـرح النـووى ، المكتبـة المصرية.
22- صــحيح النســائى ، للألبــانى ، ط. مكتــب التربية العربى.\
23- عارضة الأحوذى بشرح جامع الترمذى، لابن العربى ، ط. دار الوعى.
24- عـدة الصـابرين وذخيـرة الشـاكرين، لابـن القيم ، زكريا على يوسف.
25- عون المعبود بشرح سنن أبى داود، لشمس الحـق أبـادى، ط. المكتبـة السـلفية بالمدينـة المنورة.
26- فتـح البـارى بشـرح صـحيح البخـارى، لابـن حجر، ط. السلفية.
27- مجمـع الزوائـد زمنبـع الفوائـد، لنـور الـدين الهاشمى، ط. دار الكتاب العربى.

28- مدارج السالكين، لابن القيم ، ط. دار الفكر العربى.
29- مستدرك الحاكم ومعه تلخيص الـذهبى، ط. دار المعرفة.
30- مسند أحمد بفهـرس الألبـانى، ط. المكتـب الإسلامى.
31- مشـــكاة المصـــابيح، للتـــبريزى بتحقيـــق الألبانى، ط. المكتب الإسلامى.
32- مفتاح دار السعادة، لابن القيـم ، ط. مكتبـة السعادة.
33- موطــأ مالــك ، بــترقيم محمــد فــؤاد عبــد الباقى، ط. الحلبى.
34- موارد الظمآن فى زوائد ابن حيـان، ط. دار الكتب العلمية.
35- موعظة المؤمنين، للقاســمى، ط. المكتبــة التجارية.
36- المعجـــم المفهـــرس للألفـــاظ الحـــديث، لجماعة من المستشرقين ، ط. دار الدعوة.
37- الوابل الصيب ، لابـن القيـم ، ط. المطبعـة السلفية.

15- فهرس الموضوعات

مقدمة المؤلف
1- الإخلاص والمتابعة
أ- الإخلاص
- بعض الآثار عن الإخلاص
- فضل النية
ب- متابعة السنة
2- فضل العلم والعلماء
3- أنواع القلوب وأقسامها
- علامات مرض القلب وصحته
- أسباب مرض القلب
4- سموم القلب الأربعة:
1- فضول الكلام.
2- فضول النظر.
3- فضول الطعام.
4- فضول المخالطة.
5- أسباب حياة القلب وأغذيته النافعة.
1- ذكر الله وتلاوة القرآن
2- الاستغفار
3- الدعاء
4- الصلاة على النبى
5- قيام الليل
6- الزهد فى الدنيا ، وبيان حقارتها.
- ذم الدنيا
- أضرار حب الدنيا

7- أحوال النفس ومحاسبتها
- فوائد محاسبة النفس
8- الصبر والشكر
أ- الصبر
- معنى الصبر وحقيقته
- الأخبار الواردة فى فضيلة الصبر
ب- الشكر
9- التوكل
10- محبة الله عز وجل
11- الرضا بقضاء الله عز وجل
12- الخوف والرجاء
أ- الرجاء
- أخبار الرجاء
ب- الخوف
- فضيلة الخوف
- الأخبار فى الخوف.
13- التوبة
- التوبة النصوح
- أسرار التوبة ولطائفها.
14- فهرس المراجع
15- فهرس الموضوعات